مواكب جبران

بين عموم الرومانسية

وخصوصية التجربة الشعرية



الدكتورة

وجيهة محمد المكاوي

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٨١١.٠٠٩٨٧٣
ا.و

المكاوي ، وجيهه محمد .
مواكب جبران بين عموم الرومانسية وخصوصية التجربة الشعرية / وجيهه محمد المكاوي .- ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع
١٤٨ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .
تدمك : ٧- ٦٧٨– ٣٠٨ – ٩٧٧ – ٩٧٨
١. الشعر العربي - المهجر.
أ - العنوان

رقم الإيداع :٥٢٠٣

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣
E-mail: elelm_aleman٢٠١٦@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع
تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر
هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣
محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com



مواكب جبران

بين عموم الرومانسية

وخصوصية التجربة الشعرية

محتوى الفهرس

محتوى الفهرس ٤

المقـدمـة ٦

توطئة عصر جبران المذهب الرومانسي – مدرسة المهجر ٨

الخصوصية – الذاتية.. ١٤

ملامح الأدب المهجري وسماته................................ ٢٦

الفصل الأول الشاعر والتجربة ١٨٨٣– ١٩٣١ .... ٣٩

ثقافـــته وأثرها في التجربة ٤٤

جبران آراء وأفكار : نثر ونظم.................................. ٥٢

الفصل الثاني عناصر التجربة الإبداعية ٥٨

سمات الأدب الرومانسي والمهجري وتحققها في المواكب.. ٨٠

فكرة المواكــب... ٩١

الإيقاع في النص.. ٩٥

البناء الهيكلي للمواكب الجبرانية............................... ٩٧

اللغة في شعر جبران " المواكب "............................ ١٠٥

التجديد في شكل القصيدة ١١٧

الحوار في القصيدة.. ١١٩

الخاتمة والنتائج... ١٣٦

المصادر والمراجع.. ١٤١

المقـدمــة

لقي المذهب الرومانسي كثير من الاهتمام إذ تناوله النقاد والأدباء بالشرح والتحليل مبرزين سبب تصدره للساحة الأدبية ، وسماته، وخصائصه ، ولعل مدرسة المهجر من أكثر المدارس تأثراً بهذا التيار إذ إن الوجود في الغرب اختزل المسافة، فأيما تطور أو تطوير يطرأ يمس المهجريين مباشرة فيكونوا أشد تأثراً به ويظهر هذا التأثر في إبداعهم وكان جبران من أشد المتأثرين بالرومانسية تجلى ذلك في منجزاته كافة وفي قصيدة "المواكب" على وجه الخصوص إذ عكست ثقافته ورؤاه واتجاهاته التي اتسمت بالتغيير ، وعدم الثبات نتيجة لتغير فهمه وتوجهه ، وتبدى في أعماله تأثره بالثقافة الغربية عامة والرومانسية خاصة ؛ إذ تأثرت تجربته الإبداعية بالمناخ الثقافي المسيطر بشكل عام، والصفوة المحيطين به بشكل خاص حيث اصطحب نخبة من الأدباء في حله وترحاله، فبدى جلياً تأثره بهم وبنتاجهم، والمواكب مترامية الأهداف من دعاوى متتالية للتغيير ورفض الاستسلام ،والتزام الإيجابية ؛ واتسمت بالجدة من خلال النظم ومحتواه ، واللفظ ومعناه ، والعاطفة وأوارها المشبوب، والصورة الشعرية وتجلياتها؛ مما أكسب التجربة الإبداعية

لدى جبران ألقًا ووهجًا لا يتسرب إليه بهتان، وقد انتظم عقد الدراسة في توطئة ومبحثين:-

- ففي التوطئة : كان الحديث عن عصر جبران من خلال (المذهب الرومانسي - تيار المهجر-والخصوصية أو الذاتية في الأداء والتعبير)
- المبحث الأول : دار الحديث عن الشاعر وتجربته وسيرته ومسيرته الإبداعية ، وثقافته المتنوعة ، وأثر ذلك كله مخاض تجربته.
- المبحث الثاني : قراءة جديدة للمواكب ، كشفت فيها جماليات التشكيل الشعري ، حيث الإيقاع في النص، والبناء الهيكلي ،واللغة والأسلوب ، والصورة الشعرية .
- الخاتمة التي جاءت مشفوعة بنتائج البحث .
- ثم المصادر والمراجع .

توطئة عصر جبران
المذهب الرومانسي – مدرسة المهجر

استقر التيار الكلاسيكي بشكله ومضمونه ، ردحاً طويلاً، يستدعيه قدامى الأدباء المبدعين ،ويستلهمونه، مقتفين أثار منجزاته الأدبية ، ثم ظهرت الرومانسية ؛ وإذا بالرومانسيين ينفضون عن كاهلهم النماذج المبدعة سلفاً ،وانطلقوا معبرين عن احتياجاتهم ومقتضيات عصرهم .وكان للثورة الفرنسية ١٧٨٩ اليد الطولي في ذلك ، إذ صُف المجتمع الغربي للتخلص من الضوابط والقيود الضاغطة في التنظيم الاجتماعي ، والقيم الجمالية ، والطرق السلوكية ، والقواعد الأخلاقية (فالاتجاه الرومانسي ينتشر عادة في المجتمع الذي يبدأ في زحزحة الأسس التي يقوم عليها بناؤه الاجتماعي – على حد قول د سيد حامد النساج [1] فاعتلت القيم الجديدة والرؤى المستحدثة ما أرسته الكلاسيكية في النواحي المختلفة من عادات وتقاليد ومُثُل وشرائع ، وجماليات مجمدة في النواحي المختلفة مستمدة مما صاغه قدامى الفلاسفة.أرسطو، هوراس وغيرهما من مفكري الإغريق ، وصار النتاج الأدبي متلازماً مع الرؤى الفكرية ؛ يتطور عبر قفزات تشهد بخصوبة الحضارة

---

(١) في الرومانسية والواقعية د سيد حامد النساج صـ ٩ مكتبة غريب

الأوربية وخصوصيتها ،من عصر النهضة ، إلى عصر التنوير إلى عصر الثورات ، إذ استبدلت قيم بقيم. " ومن هذا الجانب تعتبر الرومانسية صياغة حضارية لازمة التناقض بين القيم القديمة والعلاقات الاجتماعية الجديدة [1] – وفي هذا الشأن يقول ف. ج . فيشر : فالحركة الرومانسية التي بدأها روسو في فرنسا وأينعت عند " ورد زورث " "وبيرون" وشيلى " وكيتس " حركة برجوازية صميمة ثائرة تهدف إلى تحرر " الأنا" من جميع القيود المعروفة وتمجد الذات ، وتقيس الكون كله لا المجتمع وحده بمقياس " الفرد –[2]

والإنسان كفرد محط اهتمام الرومانسية ،وأُتيح للمبدع أن يتكلم عن ذاته و ما يموج في خاطرة قلبه ، وينطق به لسانه ، وما يُثار في سبحات خياله، يسجله بكلماته ..

" وبينما كان يطلب من الكلاسى أن يكبح جماح مخيلته ، فإن الرومانسي أصبح حراً في أن يطلق لخياله العنان وأن ينطلق وراء اللا محدود والمطلق " فالفرد " هو الغاية العظمى في الأدب

---

(١) في الرومانسية والواقعية صـ ٩

(٢) الرومانطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث عيسى يوسف بلاطة دار الثقافة بيروت صـ ٨ ١٩٦٢.

الرومانسي وبه تستنهض المجتمعات وهو قرة عين الطبقة الوسطى التي سادت " وهو ريحانتها العاطرة وقلبها النابض" (١)

وما ظهر التيار الرومانسي في الأدب إلا لأن الأدب بات متميزًا بالفرادة أو الذاتية في ا لجوهر " أن الإنسان الفرد بالذات مخزن لا ينضب من الممكنات (٢) فالفرد. يستطيع فعل كل شيءكذلك الأدب يمتلك قدرة التعبير والتجسيد لكل شيء -غالبًا - فهو يركز في التعبير عن نفسه ويطرح " تصوير " الحياة " "كنمط " يمثل النموذج الأعلى المراد تجسيده. وتشكل الفرادة حجر الزاوية في الاتجاه الرومانسي. إذ يؤمن الرومانسيون بالفردية وعبقريتها.. كنوع من القدرة على تمحور الذات ، وانخراطها في دنيا الأدب والفن، رافعة من شعار " ثق بنفسك" تاركين للفرد الحرية في الانطلاق والتجديد خاضعين لفكرهم وآرائهم عارضين تجاربهم وملامحهم الذاتية ، بما أُتوه من قدرات فللمبدع مندوحة في الخضوع للنزعة الفردية والتعبير عنها كما يريد .

---

(١) في الرومانسية والواقعية صـ ١٠
(٢) المرجع السابق ١٣

فهو تعبير " ذات معينة تنتمي لطبقة معينة لها طبائع وغرائز ومشكلات وأماني معينة " (٢)

مع الأخذ في الاعتبار أن الإفراط في منح مزايا "للذات" "أو للفرد " يقابله التفريط في حق "المجتمع " إذ أن الإسهاب في التعبير عن الأنا "الذات " يقترن به إيجاز في الاندماج مع المجتمع. مشكلاته.وآرائه مما يوسم الفن بالانعزالية والانغلاق ، وهما قبيحان في الفن إذ" الفن تعبير اجتماعي موضوعه الإنسان داخل المجتمع الإنساني ، الذي يعيش دائماً على الرقى بفعله، دائباً على التسامي بعواطفه داخل مجتمع إنساني يتطور بتعاقب الأجيال إلى الأمام في غير رجعة أو نكوص على الأعقاب " (١)

كما أن هناك الأبعد الثلاثة التي تنداح داخل العمل الفني بوعى أو بغير وعى من الأديب الرومانسي، حيث البعد ألزماني، والبعد المكاني، والبعد الصوتي ، تعد بمثابة وحدات رئيسة مكونة للعمل الإبداعي : إذ قد يفر المبدع من واقعه موغلاُ في عصور مضت يستروح بفيئها وما تبعثه في نفسه من أريحية باسطة الظل، والبعد المكاني إذ يفر من مجتمعه ملتحقاً بمجتمع أخر يوفر له

---

(٢) في الرومانسية والواقعية صـ١٦

(١) في الرومانسية والواقعية ص١٧

مبتغاه من الحرية والعدل والجمال ، وقد يلجأ للبعد الصوتي؛ إن نفر من صخب المدينة وتطلعت روحه إلى هدوء الصحراء، مطلقين للفنان العنان ويد الخيال لبث من خلالهم الكلمة واللحن مقدرين أهمية ذلك كله ، فالفكرة السائدة لم الفن لم يكن صنعة ترفيهية ولا سحر بل هو رؤية وتعبيرات معبرة عن النفس لا مجرد سيكولوجيا للانفعال وإنما هو بمعناه الحق تعبير وخيال يتجلى فيه ثقافة القائل وقدراته على القول والإبداع.

وقد بُهر المهجريون بما لاقوه من أجواء الحرية ، وآفاق الإبداع اللا متناهي الذي ينعم به بلد المهجر

وقد بات من نافلة القول إن الشاعر الرومانسي يغلب عليه النظر في ذاته، والتقوقع على نفسه ليستبين ملامحها ، وما يعن لها فغلب عليه الشعر الغنائي ، فمن خلاله يستفرغ الانفعال متبدياً في القوة الشعرية بالإضافة إلى أن الشاعر لا يرهق إرهاقه في الفنون الموضوعية فلا يحتاج إلى شحذ نفسه وكلماته بشحنات استدلالية أو صيغ برهانية وما يقتضيه ذلك من امتلاك ملكات جادة بل ساد وعم

إحساس بالحب على الشاعر الرومانسي إحساس يعيشه ويجيد التعبير عنه باستفاضة وبتنوع [1]

وتأسيساً على ما سبق فإن الأدب الرومانسي هـو أدب العاطفة ، والإنضاء بذات النفس في قـوة تبين طابع الفرد ، وتعبر عـن آلامه وآماله ، كما أن الأدب الرومانسي يجحد سلطان العقل ، ويتوج مكانه العاطفة والشعور ويسلم القياد إلى القلب ، الذي هـو منبع الإلهام ، والهادئ الذي لا يخطئ ... لأنه موطن الشعور ، ومكان الضمير "٢"

□

(١) في كتاب في الرومانسية والواقعية استعرض د سيد حامد النساج باستفاضة أنواع الحب عند الرومانسيين صـ٢٢ وما بعدها .

(٢) الرومانتيكية د محمد غنيمى هلال صـ١٠- ١٨ دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧١

الخصوصية ـ الذاتية

لكـل مبـدع سمـات خاصـة تعتليـه وتتبـدى في أدائـه التعبيري، كما أن لكل مبدع قاموسه ونهجه في التأليف الذي يميزه ويفرده عن غيره ، بل أن لكل تجربة إبداعية لحظتها الشعورية التي تميزها عن غيرها ولا يظهر ذلك التميِّز بين الشعراء فقط ، بل عند الشاعر نفسه في وقت دون أخر ، وفي تجربة دون غيرها ، وهذه الخصوصية أو تلك الذاتية هي المميزة بين المبدعين أيما كان مجال إبداعهم: صوتي – غناء– لوني –رسم –نظمي –أدب– أو نتاج إبداع غير ذلك من الحواس ، ولأن موضوعنا عن الأدب دون غيره من المنجزات الإبداعية ، فقد إحتدم النقاش حول الذاتية ، والذاتية مرحلة سابقة على الموضوعية ؛ بمعنى أن كل عمل فني لا يخرج من عالم الشعور إلى عالم الشعر إلا بعد أن يكون قد اختمر في ذات صاحبه ، وتلون بها ، فكل فكرة أو كل موضوع ما هو إلا تلك المادة التي يصنع منها الشاعر فنه وإبداعه ،بعد أن تعمل الذات فيه عملها وأثرها وتخرج عليها بصمته.

الشعر الذاتي ضارب بجذوره في القدم ، فمن الأزمنة الأولى ويوجد الشعر الذاتي الذي يعبر عن ذات الشاعر ، ولم يك يلتزم نمطًا واحدًا ، أو حالة ثابتةٌ ، ففي القدم كان الصعاليك كلشنفرى، وكان المتيمون كعنترة، وقسم ثالث غير مصنف. فمثلًا هناك طرفة ، وامرؤ القيس ، فطرفة قد شقي بقبيلته ، وقد يتقوقع فيعبر عن ذاته ، وامرؤ القيس تذبذب شعوريًا بين المنزعين ، وبالتالي ظهر ذلك في منجزاته الشعرية والتوغل داخل الذات ليس كله محمود، فقد يلحق الذاتية السوء والخطورة " فخطورتها تكمن فيما تشيعه من خور في الروح ، وفتور في العزائم ، واستهتار بالقيم وأنانية وأثرة "(١)"

إذن الحديث عن الذاتية ليس شيء مستحدث بل إن النقاد رأوا المطالع الطللية الجاهلية ذات صبغة ذاتية يقول د/حامد محمد مرسي " المقدمة بكل ما تشتمل عليه من وقوف على الأطلال ، ووصف لرحلة الحبيبة ، ورحلة الشاعر

---

(١) الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية- د إخلاص فخرى عمارة ص٢٢٠ مكتبة عمارة ط١ ١٩٩١

وراحلتــه ، ومــا يشــبهه بهــا مقدمــة عامــة لمــا يريــد الشــاعر ذكــره في قصــيدته فهــي القســم الــذاتي الــذي يعــبر فيــه عــن أحاسيســه ومشــاعره ويبــث شــكواه وآلامــه ، وهــى انعكــاس للأبعــاد الاجتماعية ، والنفسية للشاعر "(١)"

فهــذا اللــون وتلــك البصــمة ، أثــيرت حولهــا أحاديــث أن يكــون العمــل نتيجــة نفــس متــأثرة ،وذات رنــت لتصــوير أمــال الــنفس وآلامهــا ، أحاسيســها ،انفعالاتها،مشــاعرها ، وهــذا التصــوير يراعــى فيــه الإمتــاع والإقنــاع إمتــاع : مــن خــلال اختيــار اللفــظ المناســـب ، والصـــورة المواءمـــة ، والموســـيقى المتناســـبة ، والعبــارة المســتوفاة ، والإقنــاع أن تكــون التجربــة في صــياغتها قابلــة إقنــاع المتلقــي بصــدق المبــدع ولا أقــول بصــدق وقــوع التجربــة فهــذا لــيس شــرطاً في الإبــداع الأدبــي عامــة ، والشــعر خاصــة فللأديــب أن يطــرق مــن الموضــوعات مــا شــاء ومنــاط التقيــيم مراعــاة مــواطن الجمــال فالذاتيــة لا تعنــى أن يعــبر كيفمــا اتفــق ، ولا أن تتــدفق العبــارات متنصــلة مــن المظلــة الجماليــة ؛ إن ذلك لا يكون أدبًا فللنثر الأدبي العبارة الراقية أما الشعر

---

(١) أبعاد ذاتية في الشعر الجاهلي دراسة تطبيقية على المعلقات الشعرية صـ٦ -١٩٩٥-

فهـو " يحتـل مـن قـوى العقـل قـوة الإحسـاس ، دون قـوة الـتفكير، الـتي تعلمنـا الحقـائق وتهـدينا إليهـا ، ودون قـوة الإرادة الـتي تأخـذ بأيـدينا ، فالشـعر لا يعطينـا معرفـة ولا خلقاً، إنمـا يعطينـا شـيئًا يعلـو علـى عالمنـا الحقيقـي لسـبب بسـيط ، وهـو أنـه يقـدم لنـا ضـربًا مــن الجمــال ، وللجمــال جــوهره القــائم بذاتــه ، وهــو جــوهر ينبغــي أن يــدرس دراســة منعزلــة عــن ضــروب النشــاط الإنســاني الأخــرى حتــى نفهــم مــا يرفــدنا مــن لــذة وانفعــالات جماليــة ، وبهــذه الانفعــالات الجماليــة الخالصــة ينبغــي أن نقومــه ونقدره (١)

وأعنــى بالذاتيــة ، ذاتيــة الشــاعر الملــتحم بتجربتــه ، بلــغ تـأثره بهـا درجـة قصـوى ، فـإذا مـا عبَّـر عـن تجربتـه خرجـت قطعًـا مـن ذاتـه منضـوية علـى حنايـاه لأن (لشـاعر الـذاتي نظـم الشـعر أولاً كــي يغنــى لنفســه ويبــث همومــه ، ويـنــاجى حبيبتــه، أو يعــبر عــن أفكــار وخــواطر تؤرقــه ، ويصــور مشــاعر وأحاسـيس يضــج بهــا قلبه "٢" كل ذلك من خلال ذاتية الأديب وشخصيته ،

---

(١) من صحائف النقد الأدبي د عبد الوارث الحداد صـ١٧٠ دار الطباعة المحمدية ط١ ١٩٨٩

(٢) الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية ٢٢٧

والرومانسيون أعطوا مساحة كبري لذواتهم وما تعانيه وتحسه،وهى مظلة تظلل إنتاج الرومانسيين كافة ، وفي شتى مواطن الإبداع؛ قصة ، شعر، مسرح، لا يشذ عن ذلك أحد ولا يتخلف عن مسارها أديب . ، وهذا انعكس على سمت المنجزات الأدبية ، إذ تجلى فيها الانطلاق الشعوري للمشاعر الفردية فتجلت الرؤية الذاتية بلا مواربة ، وبنزع عقال المفروضات من الضوابط والقيود، تحرر المبدع من أعباء العادة والتقاليد وخرجت تجربته منطلقة" من مشاعره الذاتية وراح يبنى لنفسه عالمًا خاصاً يموج بالأحلام والرؤى والتطلعات ، فالذاتية يعبر بها الفرد عما يجيش في ذاته ، ويوجهها إلى الفرد حتى وإن اكتنفها بعض الغموض الجائز لذا قالوا" إن الأدب الرومانتيكي وليد الألم ، ولا ينشط إلا مع الحزن ، ولا يزدهر إلا في الوسط الغائم "(١)

وكانت الطبيعة هي ملاذهم ودعمهم الذي لا ينفذ ولا يتخلى عنهم ، فالتصقت ذواتهم بها ، ورؤاهم بأشكالها ، ومنهجهم بنظمها فعبروا في ذاتية طبيعية ، أو في طبيعة ذا.

(١) تيار من الشرق والغرب د إبراهيم سلامة صـ٣٠١ مكتبة نهضة القاهرة ب.ت

الطبيعة وأثرها في الاتجاه الرومانسي – جبران:

شكلت الطبيعة حيزاً مميزاً من الأدب الرومانسي ،إذ فرضت وجودها وأكدته ، فحضرت بقوة في الإبداع الرومانسي ، فالطبيعة عند الرومانسيين هي الملاذ الذي يفرون إليه بعد اصطدامهم بالحضارة الغربية المتوحشة، إذ شكلت الطبيعة لهم الحرية والبراءة الطفولية، وتبدى ذلك واضحاُ في إبداعات " روسو " ثورو" وتمدد احتفاؤهم بالطبيعة ، فشمل بلاد أوروبا "جوته " بألمانيا" ورد زورث " بانجلترا .

وتبنى الاهتمام بالطبيعة العديد من الفئات المختلفة من رجال الفكر والدين .

"وكانت صيحة الحرب في مبدأ الحركة الرومانسية أن " عودوا إلى الطبيعة فأصبحت حين بلغت الحركة عنفوانها وقمة تطورها ونموها في أوائل القرن التاسع عشر " اتحدوا مع الطبيعة" والطبيعة عندهم مادة حية يعيش فيها الرومانسي وله تأثير على نفسه ، فيأتي التأثير بانعكاسها المتجدد على صفحة حياته، وهم لم يلوا عنق الطبيعة أو يجبروها علي

التطويع ، بل منحوها مساحة واسعة لاستعراض قدرات الإنسان ومقدرته على السيطرة عليها عن طريق كشف الأستار والحجب وإخضاعها من أجل " أن الطبيعة عند الرومانسيين ليست قوة معادية قاهرة كما كان المفهوم من قبل ، بل صارت وسيلة للكشف عن طريق تغلغل النفس الإنسانية أصول ما حولها واستكناه أسرار محركها الأول .

ولذا تشعب الأدباء الرومانسيون يطرقون أبواباً شتى في الإبداع الرومانسي إذ أبدع "ولترسكود" في القصص التاريخي ،إذ جعل الشخصيات التاريخية تحتل المرتبة الثانية، واخترع شخصيات وجعل لها الصدارة والريادة، ممثلاً للفئات المتنوعة، في الزمن المختار لإحياء عاداته وتقاليده وتحمليها أفكار الكاتب ، واستطاع سن قوانين فنية في هذا النوع لازالت متبعة دون تغيير ،وكانت النظرة للطبيعة ذاتية بحتة ، لذا ذاع صيتها في الشعر الغنائي ، إذ تسيطر العواطف وتلتحم بالطبيعة " فأدبهم الغنائي كان عاطفياً وخاصاً بوصف الطبيعة"[1] وقد شغف الرومانسيون بالقصص المرعبة

(١) تاريخ الأدب الفرنسى – جوستاف لانسون – ت د محمود قاسم جـ ٢ صـ ٢٣٣٧

والمخترقة للأطر المألوفة : إما خدشاً للأعراف السائدة ،أو إيغالاً في الإبهام والإخفاء، أو اختلاقاً للحدة والعصبية في القصص والمسرح ، ويعد "إدجار آلان بو" رائد للقصة البوليسية الرومانسية ، كما أعطى الرومانسيون للصياغة أهمية كبرى فأولوها بالعناية من أجل استمالة القارئ

" والسيطرة عليه لذا يشحذ الصورة ويملئوها بالتهويل والمبالغة ، بل والعنف في التعبير والاحتفال بالمفاجآت، حكراً على النواحي الحزينة، بل قد يقارب النواحي المبهجة، إذ تحدث مفارقات فنية تخدم العمل الفني واتجاهه، وإن خرجت عن المألوف والمعهود ، ففي العمل الفني لا بد أن يتوفر نظم قادرة على إيجاد إرادات مختلفة، ووقوع صراع بينهما سواء أكانت هذه النظم يحملها شخصيات "قصاً" أو يقوم بها إحساس وشعور " شعراً"

وقد ساد الاتجاه الرومانسي وقامت به شخصيات "برجوازية " وعبر الشعر عن نفس قائله وصار " بصورة واعية أو صورة لا واعية مادة شخصية أكثر من ذي قبل مرآة الفردية الخاصة لأي رجل وصدى تفرده وشذى حساسيته الخاصة .

صـــار الأدب الرومانســـي كتلـــة فنيـــة ســـائدة تنكفـــئ علـــى أجـــزاء مشـــكلة الحـــزن الفـــرح الـــوهم والحقيقـــة ، ألأمـــل في السـعادة والحيـاة، ملازمـة اليـأس والـتفكير في المـوت يقـترن بفكـرة الـتعمير و التغـيير، قـد تم بانسـياب وهـدوء، فلـم يوجـد عنـد المهجـريين شـعراء لهـم ثقلـهم الفـني ؛ يُخْشَـون عنـد التجديـد أو لغـــويين يـــدخلوا مـــع المجـــددين في ســـجال حـــول أهميـــة التجديـد اللغـوي وحتميـة التعـبير عـن العصـر بمفـردات العصـر ، لـــذا انســـاب التغـــيير في هـــدوء وتبـــدى في التجـــارب الذاتيـــة المحملـــة بـــالعواطف، والـــتي تعكـــس الآلام والمتاعـــب ومـــا اصـــطدموا بـــه في الغربـــة وفي هـــذا الصـــدد يقـــول د حســـن الكبير[1].

عمـا وجـدوه " مـن فشـل وإخفـاق ، ومـا قـاموا بـه مـن محـن ومشـاكل ، كـان لابـد لهـم مـن التسـرية عـن نفوسـهم المعذبـة ، وأجســامهم المكــدودة ، والبحــث عــن ملطــف، أو منشــط لهــذه الـنفس حتـى يزيـل عنهـا مـا يعصـف بهـا مـن حـيرة وتـردد وتساؤل مرير ، ويجلو عنها ما تكاثف عليها ؛ من صدأ الحياة القاسية ،

(١) تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربى الحديث صـ٣٩١- دار الفكر العربي

حتى كاد اليأس يستولي عليها ،فكانت الشكوى وإظهار الألم، ظاهرة من الظواهر الواضحة في شعرهم ، يرافقها الهروب إلى الطبيعة ذات القلب الحنون"يناقض ما حدث في المشرق. والملاحظ أنهم حينما يصفون الطبيعة يصفونها من خلال ذواتهم ليس بشكل مجرد " فهي ثائرة مع ثورتهم ، هادئة مع هدوءهم ، وهي عارية في كآبتهم ، ناضرة في انشراحهم ، وهم يرون في ظواهرها المتعددة رموزاً لحياة الإنسان ،كما اقترن تعلق الرومانسيين بالطبيعة بتعلقهم بالريفيين السذج ، والرعاة الوادعين الذين ظلوا بعيدين عن ضوضاء المدن ، وخداع المدينة ،وقيود الحضارة – على حد قول عيسى يوسف بلاطة"١"

وفي منتصف القرن التاسع عشر، وبعد أن كان المميزين يحلقون في سبحات الأوهام اصطدم الجمع بالواقع ، وتشظت الرومانسية إلى اتجاهات ورؤى .

" الفن للفن " " التأثيرية " التعبيرية" الرمزية " وغيرها وكل هذه التقسيمات ؛ جمعها شيء واحد هي التقوقع داخل الذات والصدود عما هو مجتمعي وعام خارج الذات

فالذات.. لديهم – هي الحقيقة الثابتة التي لا تقبل الشك، ثم بدأت الاتجاهات الأدبية تأخذ طابع الفن للمجتمع وتقف أمام التيار الفردي الذي ينادى بأن الفن للفن وحده. وأن الشعر لا يصح أن يوزن إلا بموازين الفن الجمالية وليس في موضوعه ولا من مهمته أن يخدم الأخلاق أو يسخر لأهداف اجتماعية[1] وكان هذا الحراك الفكري والثقافي والأدبي ، يسرى في المجتمعات على مستوى الأصعدة في أنحاء العالم ، بنسب متفاوتة بين القوة والضعف ،الشدة واللين ،على حين أن استجابة المبدعين له إنما تخضع لمزاج الشاعر وطبيعة موهبته، أو تنظيم معركى فني بين أنصار القديم والجديد وكان المبدعون المهاجرون أكثر استجابة وتأثراً .

لذلك كان التعبير عن النفس وأحاسيسها وخلجاتها في صدق شعوري ، والاندماج بهذه المشاعر في الطبيعة اندماجاً كاملاً ، وتشخيصها تشخيصًا يعتمد متكئًا على الحوار والتساؤل

---

(١) الشعر العربي القومي في مصر والشام بين الحربين العالمية الأولى والثانية سميرة محمد زكى أبو غزالة المؤسسة المصرية العالمية للتأليف والترجمة صـ٩٥

والانزياح في الأحلام والآمال والآلام من خلال ظل الطبيعة ومظاهرها وملامح ذلك كله من واقع مظاهر التجديد الواضحة في الشعر المهجري والتي استولت على المسامع والقلوب .

ملامح الأدب المهجري وسماته

لقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدية رحلات المهاجرين أفراداً وجماعات بين الأقطار العربية وبالأخص سوريا ولبنان وفلسطين إلى القارة الأمريكية في شمالها وجنوبها ، يرتادون مجالها ويفتشون عن الرزق بين جنباتها ، ويشقون في طريقها الوعر مسالك حياتهم الجديدة المرجوة والتي في سبيلها تكبدوا الأخطار ،وتحملوا من أجلها فرقة الأهل والديار[1] في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين ، كان القهر والاستبداد على أشده في المجتمعات العربية ، ففر الشباب اللبناني والسوري إلى نزح صفوة في الزمن السحيق من أُوُلى الثقافة والفكر إلى أمريكا ، فارين من بطش الحكام أو طحن العوز والحاجة ... وكان أكثرهم ذو خصال فريدة ؛ إذ عُبُوا بإرثنا الفكري والثقافي واستودعوا مخزوناً أصيلاً لغوياً وأسلوبياً ، ونظماً أدائياً.

(١) حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية والتطبيق صـ١٩ دعبد الحكيم بلبع – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠

بالإضـافة إلى مشـاعرهم الحـادة ، والـتي لم تنقطـع إزاء بلـدانهم الـتي خرجـوا منهـا ،فلـم ينبتـوا عنهـا بـل احتفظـوا –لحـد كـبير– بعروبـة القلـب وعروبـة اللسـان ، ولا شـك أن افتقـادهم الأوطـان كـان لـه الإحسـاس الفـادح والخطـب الجلـل، إذ سـيطر علـيهم حـنين دافـق ، وُوُجْـد ملتـاع لأوطـانهم ، ممـا يولـد عنـدهم حـزن دفـين قـد يـدفعهم إلى الانطـواء علـى أنفسـهم، أو الفـرار إلى الطبيعـة، حيـث الأم الحانيـة الفاتحـة ذراعيهـا دائمـاً لأولادهـا، واسـتتبع ذلـك أن اختلفـت نظـرة أدبـاء المهجـر للشـعر، إذ رأوا أن لـه " رسـالة سـامية ينقلـها الشـاعر إلى النـاس فيهـذب نـوازعهم الشـريرة، ويسـتثير فـيهم دوافـع الحـق والخـير والجمـال ، ويتسـامى بهـم عـن التبـذل، والأحاسـيس الرخيصـة ، إلى القـيم والمثـل العليـا" [1] وكـانوا علـى درجـة كـبيرة مـن الثقافة والطموح .

---

(١) محطات معاصرة في تاريخ الشعر ونقده مطران- جيل العقاد- شعراء المهجر د محمد إبراهيم الطاووسى صـ ١٧٤ دار النهضة العربي ٢٠٠٨

لقد كانت الهجرة ذاتها حركة متمردة في وجه الحكم التركي الغاشم والجبل الشحيح بالأرزاق كانت تأكيداً لوجود الفرد، وإنقاذاً لكيانه الروحي والاجتماعي لذلك كان التجاوب عميقاً بين نفسية الشاعر المهاجر وتراث الأدب الرومانتيكي وكان الأصالة الذاتية للمهاجرين [1]

وما كادت التجارة تدر عليهم عائداً سخياً ، حتى أخرجوا ما في حنايا نفوسهم من آداب وآراء وأفكار فأنشئوا في الشمال ١٩٢٠ "الرابطة الإقليمية " برئاسة جبران وعضوية ميخائيل نعيمة وغيرهما ، وفي الجنوب " العصبة الأندلسية ١٩٣٢ برئاسة ميشيل معلوف وعضوية داود شكور وغيرهما

وإذا كانت الديوان بمبادئها وأفكارها قد أثرت في الحركة الشعرية في الوطن العربي آنذاك وتجلت ملامح ذلك كله في " الجسارة والتجديد وتغيير الشكل والمضمون"[2] فإن جناحي المهجر أثرا كذلك تأثيراً بيناً في مصر بصفة خاصة؛

(١) الطبيعة في شعر المهجر د أنس داوود صـ ٣٠ الدار القومية للطباعة والنشر
(٢) عن الأدب العربي المعاصر مدارسه وأعلامه د محمد احمد العزب، طـ٢٠٠٢ صـ٧٠

إذ لفتت اتجاهاته وطرقه في التعبير الأنظار إليه ولأنه شعر عربي قريب من نفوس شعرائنا (٣) وإن كان تأثير الشماليين نظراً للبيئة والمعين الثقافي ، كان أعمق وأجدى، فالمعروف أنه كلما ارتفع المستوى الاقتصادي ارتفع المستوى الفكري والثقافي ،فرغم قلة عدد الشماليين إلا أنهم كانوا أكثر تأثيراً يعلق على ذلك د العزب قائلاً" أطلق أجنحتهم الشابة في فضاء الحرية الفنية فحلقوا في آفاق الطبيعة والكون، والميتافزيقا وعادوا أحياناً كثيرة وعلى أجنحتهم من دم المسلمات في هذه القضايا الكبيرة أكثر من بقعة وأعمق من لون .بينما ظل شعراء الجنوب يترددون على أنساق شوقي وأصحابه من مدرسة المحافظين ثم يعودون إلى ذواتهم فيغامرون في طرائق التجديد " والابتداع" وهكذا ظلوا يتوافدون على الفعل الإبداعي من خلال المحافظة والتجديد والإتباع والمغامرة (١)

وقد أفاض الأدباء والنقاد في تسميتهم وتسمية البلدان التي هاجروا منها أو هاجروا إليها ...

(٣) تطور الشعر العربي الحديث صـ١٧٥ ماهر حسين فهمى مكتبة نهضة مصر

والأصـــل في تعريـــف اللغـــة أن يكونـــوا مُهَـــاجِرين ،أو مُهَـاجَرين ،والبلـد الـتي وصـلوا إليهـا مِهْجـر ،أو مَهْجـر ، جـاء العـــرب المهـــاجرون إلى الـــوطن الجديـــد، وهـــم يطـــوون جـوانحهم علـى كـل مـرارات الـوطن الأم ، وتـرعبهم خيـالات الأمـس وعذابـه مـن الجـوع وخوفـه ، والتعصـب وحماقاتـه ، والإرهـاب وقيـوده ، والخـوف ورعبـه ، ويتطلعـون إلى مجتمـع أمـن يـوفر لهـم لقمـة العـيش ، واطمئنـان الـنفس وحريـة الحركـة والقـول ، ولم يكـن شـيء مـن هـذا ميسر لهـم في الأعـم الأغلـب وبعـد أن وطنـوا المهـاد وآلانـوا الوسـاد – علـى حـد قـول د بـدوى طبانـة يحنـون إلى مـوطنهم مفنـدين أسـباب الرضـا والسـخط ،التشاؤم والتفـاؤل ، القبـول والـرفض لمـا يحـدث في بلـدانهم مراتـع الصـبا، يعـبرون عـن ذلـك بأسـلوب راق ، يغلـب عليه الجدة والإبداع ،

وقـد تطلعـت القلـوب والعقـول لهـؤلاء الصـفوة لمعرفـة ظـروف حيـاتهم وانعكاسـها علـى إبـداعهم ، وبصـمتها علـى كيـانهم الفكـري والأدائـي "والأدب دائمـاً في طليعـة الفنـون الـتي عبرت بها الإنسانية عن نفسها وتحدثت فيه عن تصوراتها

وحملتـه أصـداء معارفهـا وإحساسـاتها منـذ عـرف الإنسـان هذا اللون من ألوان التعبير اللغوي الممتاز "

إذا لقـد عـاش المهجريـون في وسـط لغـوى مختلـف،وأدى بهـم الاحتكـاك بـالأدب وبالحيـاة الإنجليزيـة أو الاسـبانية أو البرتغاليـة إلى اتسـاع أفقهـم ، فكـانوا يتحـدثون إحـدى هـذه اللغـات الثلاثـة أو اثـنين منهـا أو كلـها في بعـض الحـالات ؛ وفـتح هـذا أعيـنهم علـى التيـارات الأدبيـة حـولهم ،فأفـادوا منهـا ، وعـبروا عـن إبـداعهم في لغـتهم الأم بأشـكال جديـدة ، وأحيانـاً متطرفـة تـأتى في طريقهـا علـى المتعـارف عليـه مـن تقاليـد أدبيـة موروثة.

ولا شـك أن الحريـة الـتي منحـت لهـم حلقـت بهـم في أُفـق رحـب ، بعـد مطـالعتهم علـى الثقافـة الأجنبيـة بشـكلها المغـاير لمـا ألفوه من مؤلفات

إذ " امتزجت هذه الثقافات والآداب في نفوسهم امتزاجاً أدى إلى أدب جديد فيه ملامح من الشرق والغرب"[1]

(١) محطات معاصرة صـ ١٧٤

فالإطلاع على الآداب المغايرة إنما يكسب الأديب ثراءً فكريًا خلاقا يجعله يزكى أدبه وفنه من خلال اختيارات الأعمال المترجمة التي تقع عينه عليها أو تأثر به في شكل متوارٍ خفي ندركه ولا نستطيع تحديده .

والأدب المهجري ظاهرة بارزة في لُحمة الأدب العربي وسُداه بما يشتمل عليه من خصال فريدة وسبك مغاير وبذلك " يتسامى صرح الأدب المهجري العربي في الولايات المتحدة الأمريكية حتى يكاد يشكل مع معطيات أدبية مهجرية من مغتربات أمريكية أخرى أندلس أدبية جديدة "[(٢)] لأنه اكتسب السمة الغالبة عليه وهى التجديد الذي كان مواكباً للأحداث العالمية فما كاد يطل علينا القرن الثامن عشر حتى " تحطمت القوالب ،وظل كل شيء في مرحلة انتظار ليصنع من جديد ، فبعد أن كانت منتجات الفكر مجهزة على حسب قواعد ثابتة يصاحبها قليل أو كثير من التوفيق في تطبيقها . أصبح كل منها اختراعاً خاصاً فيه نوع من الحكم

---

(٢) أعلام ورواد في الأدب د كاظم حطيطة دار الكتب الحديثة صـ٣٥٩

الصـادر مـن المؤلـف علـى طبيعـة الفنـون الأدبيـة في قيمتهـا ومعناهـا "[1] وهـذا ثابـت في تجليـات وإبـداع مدرسـة المهجـر ممـا يفسـر الحفـاوة بنتـاجهم الشـعري ذلـك لأن " شـعراء المهجـر يمتلكـون نزعـة روحيـة غالبـة تظهـر في تـأملاتهم في الكـون وأسـراره، واستشـرافهم إلى الأفـاق الروحيـة البعيـدة وإلى الله يضـرعون إليـه بالشـكوى ويلتمسـون منـه النجـاة مـن خضم الحياة المادية الجارف وشرورها"[2]

أمـا عـن جماليـة الأسـلوبية لـديهم فهـي ذاتيـة حيـث صـار لكـل شـاعر أسـلوبه الـذي هـو قطعـة مـن ذاتـه ، فقـد تنحـى المهجريـون عـن أرديـة ألأسـاليب القديمـة ونظـر في مـرآة ذاتـه ؛ فـرأى الظـاهر والخفـي منهـا وصـاغ ذلـك صـياغة تجلـي ملامـح الشخصية وعوالمها الدفينة

لـذا انتشـر لـدى شـعراء المهجـر شـعر المطـولات وهـو ذو طـابع ملحمـي " المواكـب لجـبران " "علـى بسـاط الـريح " فوزي المعلوف ، "الحكاية الأزلية " "والطلاسم" إيليا أبو

---

(١) ما الأدب جان بول سارتر مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ صـ١٧٧
(٢) محطات معاصرة ١٧٦

ماضـي ، "الربـع الأخـير" الشـاعر القـروي ، "أحـلام الراعـي " إلياس فرحات، " معلقة الأرز" نعمة قازان .

وإذا كانـت تلـك الملاحـم ظهـرت في المهجـر فـإن بـلاد العـرب أيضـاً تبـدت فيهـا تلـك الظـاهرة ، فهنـاك "الجحـيم " للزهاوى ، "الأعراف" للهمشرى " ترجمة شيطان" للعقاد .

وشـكل القصـيدة يـدل علـى ثـورتهم علـى قيـود القـديم في هيكـل القصـيدة ، ورسـالتها التعبيريـة ، بـل في موسـيقاها ولغتهـا مطـالبين بتهـديم حـوائط الشـكل ، وأرادوا تغـيير الهيكـل نظريـاً وتطبيقيـاً ، واستحضـروا الهيكـل الجديـد للموشـحات الأندلسـية ، متخلـيين صـراحة عـن العـروض وملحقاتـه " فـلا الأوزان ولا القـوافي مـن ضـرورات الشـعر كمـا أن المعابـد والطقـوس ليسـت من ضرورة الصلاة والعبادة

فلجـوء الشـعراء إلى الطبيعـة سمـة بـارزة في الشـعر الرومانسـي والـذي تشـبع بـه شـعراء المهجـر ، ورغـم ذلـك فـإن النقـاد قـد اختلفـوا في صـدق لـواذهم بالطبيعـة ، فبينمـا ذهـب البعض إلى أنهم اتجهوا إلى الطبيعة

" علـهم يجـدون فيهـا مـلاذاً مـن هجـير الحيـاة وعـذاباتها وآلامهـا وصـولاً لمـا تجـيش بـه نفوسـهم مـن أحاسـيس، وينـدمجون فيهـا، ويضـعون عليهـا الحيـاة ، حتـى صـارت عناصـر حيـة في تجـاربهم الشـعرية تتفاعـل معهـم ويتفـاعلون معهـا – علـى حـد قـول د محمـد الطاووسـى إلا أن الطبيعـة في شـعر المهجـر ليسـت كالطبيعـة الموصـوفة في الشـعر التقليـدي ، ، فهـي لـدى المهجـريين تحقيـق لنظريـة " الحلـول " الـتي عرفـت لـدى الرومانسـيين ، فهـم يحلـون فيهـا ، وتحـل فـيهم ، ويمتزجـون بهـا وتمتـزج بهـم، وهـذا يقـرب إلى أذهاننـا فكـرة وحـدة الوجـود ، والـتي هـي بمثابـة المحـور الـذي يُشـد إليـه معظـم نشـاط المهجـر بين الفني والفكري [١]

أمـا عـن الوحـدة العضـوية فقـد رنـت نفـوس المهجـريين إلى تحقيـق الوحـدة العضـوية في أشـعارهم ، وهـو مـا نلمسـه إلى حـد كـبير، إذ أوقـف المبـدع إبداعـه علـى غـرض واحـد ، وربمـا اسـتندوا في تحقيـق ذلـك إلى المبـدعات الغربيـة ، فإبـداع الـديوان الـذي واكـب تواجـدهم لم يسـتطع أن يحقـق ذلـك بشـكل بـيِّن كمـا أن استبطان الذات .من السمات المميزة للمهجريين استقرائهم

١ حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية والتطبيق د عبد الحكيم بلبع صـ ٢٨٤

ذواتهـم بحريـة ، والتحـرر المطلـق في مواجهـة الـذات والفـن والكـون تحـرراً قـد شـارف تخـوم التحـرر الـديني ، فاسـتبطان الشـاعر لنفسـه وتعمقـه في فهـم أسـرارها وخفاياهـا ، وانعكـاس هـذا الاسـتبطان النفسـي في مشـاركة وجدانيـة للنـاس يضـفي عليهـا الشـاعر مـن تجاربـه وخـواطره ويشـاركهم انفعـالاتهم ونـوازعهم والـتي تحصـن رومانسـية الـرؤى والميـل إلى القتـال الشـعري : ففـي دنيـا الشـعر والكلمـة اسـتطاعوا تحقيـق مـا عجـز الواقـع عـن تمكيـنهم منـه،حين سـيطر عليهـا الإحسـاس بـالاغتراب الروحـي والمـادي ولازم لشـاعر المهـاجر حنينـه الـدائم للعـودة إلى بـلاده إذ راح لا يفـارق الأمـل في صـلاح حالها ومن ثم العودة..

ومـن هنـا يمكـن القـول بـأن موقـف الشـعراء المهجـريين مـن الطبيعة واللياذ بها يعتمد على أمرين :

- أولهما : تـأثرهم العميـق بالنزعـة الرومانسية والروحيـة ، وبخاصـة (ويليام بليك ، جـون بنيـان)اللـذين كانـا يمـثلان قمـة هذا الاتجاه

• ثانيهما : نفورهم الشديد من ضجيج الحياة المادية وصخبها وعدم قدرتهم على التلاؤم الكامل ، واعتقادهم أن تلك الحياة المعقدة هي التي طمست صفاء النفس البشرية وغللتها بأغلال الشر والجشع ، والأنانية ، فكانت الطبيعة بصفائها هي الصورة المقابلة لتلك الحياة القائمة التي يشقى بها بنو الإنسان ، وأمثال هذه النماذج التي صاحبها الشعور الناقم على صخب الحياة المادية وضجيجها مثل نسيب عريضة ، وميخائيل نعيمه ، وإيليا أبى ماضي ، وغيرهم ، والذين حين وما لفحتهم شمس الحياة القاسية لاذوا بالطبيعة والحلول فيها [1]

التجول في النفس الإنسانية والانشغال بها بداخلها وخارجها ،رفض الخطابية الزاعقة ، والميل إلى الهمس والنجوى لتحقيق المراد من التعبير عن الذات ، الميل إلى الغموض وغيوم المراد بما يتناسب مع غموض الحياة وإبهامها، وعدم إعطاءها كل خفاياها ومكنوناتها

---

(١) حركة التجديد الشعرى في المهجر بين النظرية والتطبيق ٢٨٣-٢٨٨

وتظـل مدرسـة المهجـر شـأنها شـأن المـدارس الأدبيـة أجـادت في التـنظير وأبـدعت في وضـع القـوانين ، لكـن عنـد التعبير..

مـن المبـادئ مـا تحقـق علـى جزئيـات الإبـداع، وكـان عمـق التصـور منتشـر الشـذى ومنهـا مـا بهـت حلولـه في الواقـع الشـعري ، فلـم يزهـو ولم يـزه وظـل مـؤطراً بإطـار حقـائق فنيـة ؛ مشكلة لعصر الإبداع شأنها شأن باقي العناصر منها ما هـو بعيـد الغـور ومنهـا مـا كـان علـى السـطح طافيـاً بـلا جـذور ، والشـاعر المهجـري عـاد " إلى ذاتـه وفـتش عـن ملامـح وجـوده ، ولم يتخـذ الشـعر صـناعة بيانيـة ، ومهـارة في إقامـة الـنظم وتسـوية القـوافي ، بـل أمـن بـه رسالة إنسانية تعبر عـن الخـير والجمـال ، وتهـدى النـاس إلى سـبيل الحيـاة الرحبـة المتفتحـة ، وآمـن بنفسه رسولاً لبنى قومه [1]

(١) التجديد في شعر المهجر د محمد مصطفي هدارة دار الفكر العربى صـ٣٢

الفصل الأول الشاعر والتجربة
١٨٨٣ـ ١٩٣١

ولـد في ربـى لبنـان المتسـع ، فـلا قيـود ولا حـواجز " ومـا ينفـك الضـباب في أجوائهـا يتهـادى رسـائل تتواصـل بـين الأرض والسـماء ، وقـد شـب في بشـرى شمـال لبنـان محاطـاً برونـق الاخضـرار والأفـق أو المشـاهد لوحـات طبيعيـة أو صـور فنيـة أو ينـابيع إلهـام وجمـال خالـد [١] تشـبعت نفسـه بهـذا الجمـال الإلهـي ، جبـال وحقـول وديـان وتـلال فانطلقـت موهبتـه في الرسـم فمـا كـاد يلتحـق بالمدرسـة حتـى فـاق أقرانـه وبـزهم شـهرة لإبداعـه . ووالـده هـو الـزوج الثالـث لأمـه فقـد أعقبـت مـن زيجـة قبلـه أخـوه بطـرس ، وكـان والـده حـاد المـزاج متقلبـة ، قليـل الكسـب ،فأخذتـه أمـه هـو وأشـقاءه بطـرس ،سـلطانه ،مريانـه ، وهـاجرت إلى بوسـطن بأمريكـا ، فقـد عـاش في كـل مـن لبنـان ثـم بوسـطن ثـم نيويـورك خمسـة عشـر عامـاً في كـل منهـا ، ثـم تعلـم الإنجليزية والفرنسية ،

(١) أعلام ورواد في الأدب العربي د كاظم حطيط صـ٣٦٠

ثـم عـاود الالتحـاق بمدرسـة الحكمـة بـبيروت وعـاش مـع أبيـه وتتلمـذ علـى يـد الخـورى يوسـف حـداد ، ذلـك الـذي عمـق رؤيتـه في الجمـالين .الطبيعـي واللغـوي ثـم يتعلـق بالأمريكيـة " مـارى هيسـكل " الـتي تعـرف عليهـا في أحـد معارضـه ، ثـم يصـدر كتابـه " الموسـيقى " ويتبعـه " عـرائس المروج "

ثـم تتكفـل مـارى بدراسـته لأصـول الفـن في بـاريس لمـا لامسـت فيـه مـن النبـوغ والتميـز فتثقـل موهبتـه ، ويلتقـي الصـفوة مثـل ، النحـات يوسـف الحويـك، الكاتـب أمـين الريحـاني ، ثـم يعاود إلى بوسطن ويصدر كتابه

" الأجنحـة المتكسـرة [١] الـتي تـثير ضـجة في الأوسـاط الأدبيـة ، ثـم يصـدر واسـطة عقـده الإبـداعي " المواكـب " ثـم "العواصف" [٢]

ثـم يشـارك مـع النخبـة ميخائيـل نعيمـة ، نسـيب عريضـة ، أمين الريحانى ، في تشكيل الرابطة القلمية التي كان لها أثر

---

(١) المعروف أن جبران سقط على كتفه صغيراً فأُصيب بإعاقة ولم يعد ينمو وكان تكوينه الجسماني مختلفاً جراء ذلك الحادث _أعلام ورواد –

(٢) النص الأدبي في العصر الحديث بين الحداثة والتقليد عبد الرحمن عبد الحميد على – دار الكتاب الحديث صـ ٦٧ -بتصرف-

وتــأثير رائــد في تشــكيل الحيــاة الثقافيــة والأدبيــة ، إذ كــان القــائمون عليهــا أســعد حظــاً في الــنظم مــن أصــحاب "العصــبة الأندلســية " ولعــل ذلــك يرجــع بشــكل أو بــأخر إلى المســـتوى المعيشـــي المرتفـــع في الشـــمال- ولا شـــك أن المســتوى الاقتصــادي المرتفــع يــؤثر في الإبــداع كمــا يــؤثر في الســلوك غالبــاً – إذ مكــنهم مــن الإلمــام بــالتراث وفهمــه ، فحينمــا هجــروه هجــروه لنشــدان الجديــد ولــيس جهــلاً بــه أو ضــعفاً عــن اللحــاق بأهلــه..بــل كانــت رؤيــتهم لــه لا تغمطــه ولا تنتقصــه بــل تتفهمــه وتــدرك انحســاره عــن قضــاياهم ، ومــا يهمهــم يقــول جــبران واصفًا تلكم المعاني الطامحة للتجديد والثورة في اللغة : -

" لكــم لغــتكم ولى لغــتي ، لكــم مــن لغــتكم البــديع والبيــان والمنطق ، ولى من لغتي نظرة في عين المغلوب ودمعة في جفن المشتاق ، وابتسامة على ثغر المؤمن ، وإشارة في يد السموح الحكيم . لكم منها ما قاله سيبويه والأسود وابن عقيل . ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملين .ولى منها ما تقوله الأم لطفلها ، والمحب لرفيقته ، والمتعبد لسكينة ليله لكم لغتكم ولى لغتي ، لكم لغتكم عجوزاً مقعده ، ولى لغتي صبية غارقة في بحر من أحلام

شبابها وماذا عسى أن تصير إليه لغتكم ، وما أودعتموه لغتكم عندما يرفع الستار عن عجوزكم وصبيتى أقول إن لغتكم ستصير إلى لا شيء ، أقول إن السراج الذي جف زيته لن يضيء طويلاً ،أقول إن الحياة لا تتراجع إلى الوراء أقول إن أخشاب النعش لا تزهر ولا تثمر. أقول عن ما تحسبونه بياناً ليس بأكثر من عقم مزركش ، وسخافة مكلسة أقول لكم إنه لا ينقضي هذا الجيل إلا ويقوم لكم من أبنائكم وأحفادكم جلادون "[1] وإذا بجبران يحلق بأجنحة سليمة معافاة في عالمه الأمريكي ، وقد حصد ثمار ذلك .

وكسب ثروة عظيمة من مؤلفاته التي ترجمت لعدة لغات خاصة كتابه " النبي " ثم يعمق شعوره ويتسع مداره فتخطى بلد المنشأ "لبنان " وبلد المهجر "أمريكا " واتسع توجهه الإنساني ليشمل الإنسانية ؛ فوجه خطابه لها في شخصية ثابتة تنفر من الظلم والظالم. تؤيد المظلوم وتشمئز من المستسلم الخانع تريد أن ترتد الإنسانية إلى مظانها الأولى من الحرية الملتزمة ، وظل ملتزماً هذا المنزع الإنساني موقفاً وآراءً ، عمقّه الألم الذي زاده " إيماناً بالحياة وسمو استلهامها ، فإذا الوجود عنده استمرار في العطاء والإبداع فحياته

---

(١) التجديد في شعر المهجر د محمد مصطفي هدارة صـ٥٨-٥٩ طـ١ دار الفكر العربى ١٩٥٧-

معزوفة راقية " ينسجم الكون كله – عند جبران – في إطار واحد وفي بوتقة واحدة ويستمد كل شيء في الوجود حقيقته وجوهره من صلته بالنفس الإنسانية فهي مصدر كل معرفة حق بالوجود وهي جوهر الوجود " وبذلك يمكن القول بأن جبران خليل جبران كان ينشد نشر المبادئ السامية ، "ويتغلغل في ذاته المثل العليا ومحاولة إذاعتها بين الناس ، وكذا محاربة النظم التي تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان ، والعمل على خلق مجتمع إنساني يسوده العدل ، والرحمة والمحبة ، وعلى تخفيف الشقاء الإنساني ، وتصوير الحياة بصورة محببة إلى النفوس ، أو هي المحبة الصحيحة لكل ما في الوجود ، بغير تفضيل أو تفريق ، وهذا ما كان ينشده جبران ويسعى إليه ، فهو إنساني النزعة يجليها موضحًا إياها في أتم معانيها "[(١)] ومن ثم كانت حياة جبران الاجتماعية ثرية متجددة ، فقد تعرف على الإيطالية ميشلين ثم برابرة يونغ التي عملت لديه سكرتيرة ونشرت كتاباً بعد وفاته تحكى ذكرياتهما.

---

(١) أدب المهجر د / عيسى الناعوري صـ٩٤ دار المعارف ١٩٧٧

ثقافــته وأثرها في التجربة

حاز جبران كثير من الثقافة مما ساعد على تشكيل الرؤية الذاتية والنظرة الكونية لديه فأهله ذلك للقيام بدور هام وحيوي في الحياة الثقافية والأدبية ،وقد أمدته لبنان بزاد وافر من هيكلها الاجتماعي ، ومناخها الثقافي ، وجوها الطبيعي فالطبيعة التي شب فيها جبران ، وسمت ما يبدعه بالتميز والفرادة يقول د أنس داوود موضحًا السر في ذلك "لقد كانت البيئة الطبيعية التي تلقت الشعر العربي – في لبنان – تختلف كل الاختلاف – عن الصحراء الحافية القاسية ، فثمة جبال وسهول ومراع وغابات .. إلى أن يقول " ولقد كانت طاقات الإحساس بهذه الطبيعة تنصب كلها قبل قرن ونصف قرن في الشعر العامي وفي الحكايات الشعبية وهذا يفسر حيازة الطبيعة أو تقديسها للجزء الأكبر من الشعر المهجري [1]

وقد أتقن جبران اللغة الإنجليزية – كما قيل– والفرنسية، وطالع إبداعات بشرية تنتمي لأفكار واتجاهات مختلفة، وتواصل هو والأدباء الأخمع غيره من الأدباء بشكل جيد مع الرومانتيكية ، حتى قيل إنه تأثر باتجاهين

---

(١) الطبيعة في شعر المهجر دأنس داوود الدار القومية للطباعة والنشر صـ ٣٠

وبـدا أثرهمـا واضـحاً في إبداعـه إبـداع "نيتشـه " الألمـاني هكـذا تكلـم زاردشـت"، اللاهـوت الرومانسـي امرسـن ، كـذلك شـغف بإبـداع روسـو ، لامـارتين، هوجـو، سـانت بيـف، تـين ، شكسـبير ، شـيلى، كـل ذلـك أكسـبه ثقـلاً في نـواحي الأداء وقـد شغف "بويليـام بليـك" الـذي تـأثر بـه تـأثراً عظيمـاً، وود لـو يكـون مثلـه مبـدعاً في الرسـم والأدب وأخـذ نفسـه بـالتعلم والتـدريب حتـى كـان لـه مـا أراد وأتقنهمـا معـاً، وحـاز شـهرة واسـعة وسـط نخبتيهمـا وكـان نهمـاً بـالقراءة والمطالعـة، ولا شـك أن تلـك المطالعـات نمّـتْ فكـره، وطـورت إبداعـه، وميزتـه بالجـدة والطرافـة وهـذه القـراءات والمطالعـات المختلفـة أثـرت شخصـيته وأثّـرت فيهـا ، فتـأرجح بـين شخصـية مسـتقرة الإيمـان والتفـاؤل وبـين شخصـية متزعزعـة الإيمـان والتشـاؤم. ثـم سـرعان مـا يعـاود لخطوطـه الفطريـة . يقـول جـبران : مـن منبـع النيـل إلى مصـب الفـرات يتصـاعد نحـوك عويـل النفـوس متموجـاً مـع صـراخ الهاويـة . ومـن أطـراف الجزيـرة إلى جبهـة لبنـان تمتـد إليـك الأيـدي مرتعشـة بنزعـات المـوت . فـالتفتي أيتهـا الحريـة وانظرينـا ... في المـدارس والمكاتـب تناجيـك الشـبيبة البائسـة ،وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك ، وفي المحاكم

والمجالس تستغيث لك الشريعة المهملة ، فأشفقي أيتها الحرية وخلصينا " [1] ففي مناجاته للحرية نجد الاستسلام والرضا ، وفي تطور للفكر والشخصية نجد تبرم ورفض الاستكانة والعصيان.

يقول جبران :

هل لنفسي يقظة بعد الهجوع لتُرينى وجه ماضيِّ المخيف؟[2]

والحق لقد كان رهيف الحس رقيق الشعور متواصلاً مع الإنسانية " لقد واجه في بداية حياته صعوبة العيش ، ولكن سوء أحواله لم يجعله يستسلم لليأس والقنوط ، لأن طموحه كان أقوى من تشاؤمه ، فظل يعمل بجلد وجد ومثابرة حتى تألق نجمه ، وبرز اسمه ، وابتسمت له الأيام" [3]

وما إن أصابه الرخاء حتى هدأت ثائرته ، وآب إلى السلام وتفهم الأوضاع ، وصار أكثر إلتحاماً بالأخرين " إن المشكلة لا تهمه إلا بمقدار ما تؤثر فيه ، وتثير مشاعره " [4]

---

(١) الأرواح المتمردة جبران خليل جبران صـ ١٢٣--
(٢) المرجع السابق صـ ١١٢
(٣) جبران بين التمرد ومصالحة النفس صـ٥٤ عبد العزيز النعمانى الدار المصرية اللبنانية.
(٤) المرجع السابق صـ ٣٤

فبـدلت مشـاعره وبعـد أن كـان سـاخطاً علـى أبنـاء قومـه تعـاطف معهـم" وتغـيرت نظرتـه إلى قومـه مـن السـخط علـيهم إلى الرضـا عـنهم ، فبعـد أن كـان يعيـب ضـعفهم واستسـلامهم ، أصـبح يعفـو عـن أخطـائهم ، ولا يـرى إلا محاسـنهم وطيبـتهم وحكمـتهم ، الـتي كـان يـزعم أنـه يأخـذهم عليهـا ، بـل كـان يختلـق الأعـذار لجهلهم وضعفهم ، ويكيل لهم الثناء عليهم والإعجاب بهم " (١)

وبعد أن كان يؤمن بطلسمة الحياة وعدم فهمها وغموضها قائلاً: " الحياة محجبة مصونة كما أن ذاتك الكبرى محجبة مصونة "صار يتكلم عنها بتفاؤل وأمل " إن استطعت أن تحدثني عما هو الموت أخبرتك عما تكون الحياة" .

ومن الأشياء التي منحت ثقافته أبعاد واتجاهات مختلفة أنه داوم علـى مطالعـة القـرآن الكـريم، والإنجيـل، والشـعر الصـوتي ، وأعجب بالحكمة العربية من حكم الإمام على بن أبى طالب.

و لا شك أن هذا التحصيل الدائب للأفكار ، والرؤى المغايرة ؛ وسم إبداعه بسمات منوعه إذ نرى إبداعه منكفئ على التميز ؛ يمده للتعبير عنه معين لغوى ثر لا ينضب وقد حاز الثرائين : الثراء المادي

---

(١) المرجع نفسه صـ ٥٩

من مؤلفاته ورسوماته اللذان بدأ يدران عليه مبالغ باهظة حتى أنه أوصى لأهل بلدته بريعهما ثم كانت مثار خلافاً في المحاكم. والثراء الفكري فأصدر كتب الموسيقى ١٩٠٥ ، عرائس المروج ١٩٠٦، الأرواح المتمردة ١٩٠٨، دمعة وابتسامة١٩٠٩،المجنون١٩١٨، المواكب ١٩١٩.. وغيرها من إصدارات دالت على قدرته وإبداعه، وإذا كان هناك قامات طويلة أغفلها المؤرخون، وطمرتها الأهواء، وأسقطتها ذاكرة المؤرخين حقداً أو كسلاً أو سهواً ؛ فإن جبران بم امتلك من مقومات شخصية، وحيثية اجتماعية جعلته دوما تحت الشمس فقد عاش ينعم في مظاهر الترف والرفاهية، دائب النشاط الاجتماعي والفكري والإبداعي والمنهجي عاش مترفاً ثرياً أينما حل وجد الحفاوة والتقدير ، لكنه في رحلة العودة وبعد أن هاجمته الأمراض وأتعب قلبه طول التحصيل ودَّ لو أنه " زوج سعيد يهنأ بحب إمرأة واحدة ، ولكن الفرصة كانت قد أفلتت من الجسد المريض الخاوي والروح المكدودة المرهقة " [١]

وأرسل رسالة ١٩٢٠ لصديقه ميخائيل نعيمة منها " هذا القلب فقد وزنه وقافيته " [٢]

(١) روائع جبران ألاعمال الكاملة دثروت عكاشة الهيئة العامة للكتاب ط٥ صـ ٩
(٢) جبران بين التمرد ومصالحة النفس صـ ٣٢

ورغم اختلاطه بالمستويات الملتزمة والمستويات المنفلتة، كان يتمسك ببعض الثوابت الخلقية ، فقد أخذ من كل شيء قدره ولم يهرول منساقاً وراء قول فيكتور هوجو "الفن لا يحتمل القيود ، فهو يجني قطوفه من حديقة الشعر حيث لا توجد فواكة محرمة [1] بل التزم جبران الخلق في أدائه وتعابيره وأحياناً قد يلامس الروحانيات بهمسها الراق فيكون" هناك روح مبني على المناجاة الجميلة "

لقد شغف جبران بالطبيعة تبدى في أشعاره إذ مزج بينهما مزجاً ذاب معه كل منهما في كيان الأخر ، فالإنسان هو الطبيعة ، والطبيعة هي الإنسان فهو لا يؤمن إلا بأصل واحد وخليقة واحدة وقانون واحد وحب واحد أبدى لا نهائي " فهو يرى أن الإنسان يتحد مع أطراف الطبيعة شجر –غيوم – نهر –شلال – وهذا يرجع لسيطرة النزعة الرومانسية التي تتوحد مع الطبيعة تقول عنه بربارة يونج " إن وحدة الإنسان والطبيعة في الصخر في الغيوم ، في الشجر في النهر والشلال ، تتضح أبداً بشكل ظاهر في جميع إنتاج قلمه وريشته "

اتسـمت ثقافتـه بـالعمق إذ جمـع بـين المعـارف الروحيـة ، والمعارف العقلية، فتنازعته نزعتان : نزعة فلسفية عقلية ، ونزعة صوفية روحيـة وتنـاثر مردودهمـا في كتاباتـه . فجـبران كـان شـاعراً مجيـداً ومصوراً بارعاً ، له من قوة الخيال ودقة الإحساس ما أتاح له الإجـادة في وصف الطبيعـة وتمثيلـها بشـتى الصـور والألـوان ،ووافـر التشـبيه والاستعارات والكنايات ، والحق يقال إنه لم يك من أولئك الكتاب أو الشـعراء ؛ الـذين قصـروا كلامهـم علـى مجموعـة مـن القوالـب والعبارات المبتذلة الجارية على كل لسان ؛ بل غرف من قـرارة ذاتـه وابتدع بقوة قريحته صوراً تجلت فيها ذاتيته " وهنا تطـرح الدراسـة سؤالاً آلا وهـو ، هـل هيام جـبران اللافـت بالطبيعة يشير إلى دلالـة ذاتيـة لديـه ؟ نعم توحـد جـبران بالطبيعـة وصبا إلى الجمـال الأزلي الذي رسمه بالريشـة تـارة ، وبالكلمـات أخـرى ، نـراه يحـب الحقـول المجسـمة للطبيعـة بشـكل بـيِّن إذ أن " كـل شـيء يـتكلم فيهـا عـن الحب : أغصانها تتعانق وأزهارها تتمايـل ، وطيورهـا تتشـبب ، يرتـاح لمشاهدة الجداول والأزهار والغيوم لأنه يـرى " الجـداول تسـير إلى حبيبهـا البحـر، والأزهـار تبتسـم لعشـيقها النـور ، والغيـوم تهـبط نحـو مريدها الوادي .

لقد شب جبران في كنف مُثُل عاش مخلصاً لها إذ " أمن أنه لابد من ممارستها في الحياة ، فالتوقف عند كتابتها لا يعنى شيئاً لكن اقترانها بالتطبيق في الحياة اليومية هو الذي يعطيها بعدها الحقيقي "

جبران آراء وأفكار : نثر ونظم

استطاع جبران خليل جبران أن يبنى لنفسه مكان في دنيا الكلمة ، بما اكتسبه من مواهب أدبية متعددة الاتجاهات في مجالي الفن والفكر ، وقد لفت النظر في حياته وبعد وفاته إذ انسابت الأقلام ترصد قفزاته التطلعية التجديدية في الأدب واللغة. وله آراء كثيرة تعكس وجهة نظره في الحياة ويعد كتابه " البدائع والطرائف"[1] حاوية لكل آرائه وأفكاره ومن آرائه التي تناثرت في المبدعات العربية وصارت مرجعية يستدل بها الأدباء والنقاد حتى إن "نعمه كازان " أعلن بأنه سيستند في قوله إلى قول جبران إذ مثل بالنسبة له مرجعية القدامى لا الكسائى " [2]

يقول جبران : إن النظم والنثر عاطفة وفكر ، ما زاد على ذلك فخيوط واهية ، وأسلاك منقطعة ، لكم لغتكم ولى لغتى [3] فقد استطاع جبران تطويع اللغة العربية وتهذيبها، وحسن صياغتها ، وتحويل عباراتها النثرية إلى قصائد تحمل رنين الشعر، وأن تحمل أوزانه وتلونها بما حملته من ألق العواطف ، وهمس النبضات ، وتكثيف الدلالة الإيحائية .

وقد شارك جبران " كتاب المهجر العمل على تحرير اللغة من قيود الشكلية ، وتجديد ألأساليب اللغوية دون الخروج على قواعد اللغة ، وتبنى فنون أدبية حديثة كالشعر المنثور "

وقد أمن جبران بالإنسان وقدراته وهى من الثوابت لديه ، وفي هذا الصدد.

يقول جبران " إن الإرتقاء سنة البشر والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة "[1] و تمكنه من اللغة الإنجليزية اكتسبه من شكسبير، ومن مارى هاسكلى ، ومن التوراة ، إلا أنه لم يك راضياً عن تحصيله وإنجازه يقول : " إن لي أسلوبي الخاص باللغة الإنجليزية ، لكنى لم أتمكن قط من تعبير اللغة الإنجليزية بالشكل الذي عبرت به اللغة العربية ، ففي العربية قد خلقت لغة جديدة ؛ داخل لغة قديمة كانت وصلت حداً بالغاً من الكمال . لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة "لذا كان يتأثر بما يرى ويسمع ويشاهد ويرتقى بنفسه ويجود عمله واستطاع الجمع بين وسيلتي

(١) المجموعة الكاملة لجبران جـ ٢ صـ .

التعبير المسموع والملموس " الشعر والرسم إثر أمنية تمناها إذ سمع عن الشاعر الفنان الإنجليزي " ويليام بليك " وكيف التقى فيه الشعر والتصوير ومن هنا فتن جبران بالشعر وتمنى لو اجتمع فيه الفنان والشاعر كما اجتمع في يليام بليك " وقد امتلأ جبران بفيض الشعور فسيطرة المحبة على فكره ودفعته إلى التطلع لمغالبة الواقع ويدعو " عن إيمان عاطفي قوى عند أجمل وأنبل مكان تستظل به البشرية على نحو ما يصور ذلك جبران في قوله لا تقنطوا. فمن مظالم هذا العالم ما وراء المادة من وراء الغيوم ، من وراء الأثير من وراء كل شيء قوة ، هي كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة .. سوف تمر نسمات لطيفة تحمل بذوركم إلى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة " وتبلورت فكرة التجديد الشعري عند جبران بجزئياته وضرورة تجديده وعن وسائل هذا التجديد أن يؤصل لكثير من المفاهيم الجديدة ، وأشبه ما يكون بالنظرية المكتملة متكاملة في الشعر من حيث طبيعته وغاياته ووسائله

وبـذلك يمكـن القـول إن جـبران كانـت لـه رؤيتـه وتوجهـه الخـاص في الأدب والفـن ، ممـا جعلـني أقصـد إلى إيرادهـا دون تعليـق ؛ إذ تمثـل رأى الصـفوة مـن النقـاد والأدبـاء في هـذا الأدب المهجـري المميـز ، وهـم مختلفـون في الثقافـة والفكـر والانتمـاء ، ولكـنهم قـد اتفقـوا علـى كلمـة سـواء فيمـا شـيده في سـرح الأدب العربـي واحتـل الربـوة في سـرح الأدب المهجري...

يقـول عنـه د شـوقي ضـيف : " إنـه النبـع الـذي فـاض منـه الـنغم . وقـد دعـا إلى التحـرر مـن اللغـة التقليديـة في الشـعر وقـبس مـن الرومانسـية الغريبـة ومـا يجـرى فيهـا مـن ألم وتـأملات في الطبيعة والوجود . "(١)

إن حيـازة جـبران للثقافـات المختلفـة ، واطلاعـه علـى مـا يسـتجد في الأدب جعلـه يتطلـع إلى التجديـد وقـد غـض الطـرف عـن المـوروث التعـبيري في ظـل احتفائـه بالاتجـاه الرمـزي .. وبالتوراة ومؤلفات طاغور وعمر الخيام .

---

(١) فصول في الشعر ونقده د شوقى ضيف ط٣ صـ ٢٩٢ دار المعارف .

يقـول عنـه د الطـاهر مكـي " نـادي بالمحبـة وثـار علـى القيـود وعبـد ذاتـه وأهـواءه وانـدفع وراء الشـبهات واغـترف في إبداعـه مـن قـراره نفسـه ، وأكثـر صـوره مسـتمدة مـن الفجـر والظـلام والنـور " [2] وكـان اتجـاه د محمـد احمـد العـزب – رحمه الله – اتجاهًا تجديدياً مثل جبران

لذا أثنى عليه قائلاً : أطلق جبران صيحته العاتية في وجه اللغة التقليدية فزلزل بهذه الصيحة كثيراً من جوانب التسليم والإتباع في فهم اللغة، وفي طبيعة ما ينبغي أن نسددها إليها من دور تؤديه أداء معاصر فينبض بدفء المعاناة والصدق [1] والمعروف أن قيمة الأدب " في بنائه اللغوي فهو فن القول ، بمعنى القدرة على تركيب ألفاظ اللغة في طرق مخصوصة ، تمنحها الثراء في الدلالة والإيحاء وترتفع بها عن التعبير الحرفي إلى التعبير الفني غير المباشر الذي يفجر طاقاتها في التعبير.

---

(٢) الشـعر العربـي المعاصـر الطـاهر احمـد مكـى روائعـه ومـدخل لقراءاتـه ط٣ دار المعارف.

(١) عن الأدب العربى المعاصر مدارسه وأعلامه صـ ٤٣

يقول عدنان الذهبي عن جبران " وفهم جبران هو فهم لأديب درس الطبيعة والحياة أكثر من درسه على أساتذة الفكر والفن وأعلامهما ، أديب جل ما فعل به اصطدامه بالثقافات الفلسفية والفنية أوصله إلى آفاق هذا النشيد الفلسفي الأدبي الذي استأثر به أيما استئثار وهو نشيد الإنسانية

ثم تبدأ رحلة العودة بمرضه ، ويجاهد ليخرج كتابه " حديقة النبي" ويتوفي قبل أن يخط كتابه " موت نبي " ثم مات فنقل إلى لبنان وكتب على قبره " جبران يعيش بيننا".

الفصل الثاني
عناصر التجربة الإبداعية
في قصيدة المواكب
قراءة جديدة

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا
والشر في الناس لا يفني وإن قبروا
وأكثر النـــاس آلات تحـــركها
أصـــابع الدهـــر يوماً ثم تنـــكسر
فلا تقولـــن هذا عالـــم علـــم
ولا تقـــولن ذاك الســيد الوقـــر
فأفضـــل الناس قطـــعان يسير بها
صـــوت الرعاة ومن لم يمش يندثر
ليس في الغابات راعلا ولا فيها القطيع
فالشتـا يمشى ولكـــنلا يجاريه الربيـــع
خلق الناس عبيداً للذي يأبي الخضوع
فإذا ما هب يومـــاً سائراً سار الجـــميع
أعطني الناي وغن فالغنا يرعي العقول

وأنيــن الناي أبقــى من مجيد وذليل

وما الحـياة سوى نوم تــــراوده

أحــلام من بمــــراد النفس يأتمر

والسر في النفس حزن النفس يستره

فإن تــولي فـــبالأفــراح يســتتر

والسر في العيش رغد العيش يحجبه

فإن أزيـــل تـــتولي حجبه الكـــدر

فإن ترفـعت عن رغـــد وعـــن كدر

جـــاورت ظل الذي حـتارت به الفكر

ليس في الغابات حزن لا ولا فيها الهموم

فــإذا هــب نسيــم   لم تجئ معه السموم

وغيــوم النفس تبــدو من ثناياها النجوم

أعطني النـاي وغــن فالغنا يمحو المحن

وأنيـن الناي يبقـــي بعد أن يفني الزمن

وقــل فـــي الأرض من يرضـي الحــياة

كما تأتيه عفواً ولم يحـــتكم به الضـــجر

لـــذاك قـــد حولوا نهـــتتر الحياة إلى

أكـواب وهم إذا طـافوا بها خـــدروا
فالنـــاس إن شـــربوا ســـروا كأنهم
رهن الهوى وعلى التخدير قد فطروا
فـــذا يعـــربد إن صلـــى وذاك إذا
أثرى وذلك بالأحـــلام يخـــتمر
فالأرض خـــمارة والـــدهر صاحبها
وليس يرضي بها غير الأولي سكروا
فإن رأيت أخا صـتتتحو فقل عجباً
هل استـظل بغــيم ممطـــتر قمر ؟
ليس في الغابات سكر من خيال أو مدام
فالسواقـــي ليس فيها غير أكسير الغمام
إنما التخدير ثــــدى وحليب للأنام
فـإذا شاخـوا وماتـوا بلغوا سن الفطام
أعطني النـــاي وغـــن فالغنا خير الشراب
وأنيـــن الناي يبقـــى بعد أن تفني الهضاب
والدين في الناس حقل ليس يزرعه
غـــير الأولـــي لهم في زرعه وطـــر

مــن أمل بنعيــم الخــلــد مــبتشر
ومــن جــهول يخـــاف النار تستعر
فالقـــوم لولا عقــاب البعث ما عبدوا
رباً ولـــولا الثواب المرتـــجي كفروا
كأنما الدين ضـــرب من متاجـــرهم
إن واظـبوا ربحوا أو أهـــملوا خسروا
ليس في الغابـات دين لا ولا الكفر القبيح
فـإذا البلبـل غنـي لم يقل هذا الصحيح
إن ديـن الناس يأتـــي مثل ظل ويروح
لم يقم في الأرض ديـن بعد طه والمسيح
أعطني الناي وغـــن فالغنا خير الصلاة
وأنيـن الناي يبقـى بعد أن تفني الحياة
لخير في الناس مصنوع إذا جبروا
والشر في الناس لا يفني وإن قبروا
وأكثــر النـــاس آلات تحـــركها
أصـــابع الدهـــر يوماً ثم تنكـسر
فلا تقـــولن هـــذا عالـــم علـم

ولا تقـــولن ذاك الســيد الوقـــر

فأفضـــل الناس قطـــعان يسير بها

صوت الرعـــاة ومن لم يمـــش يندثر

وبـدءًا نقـل : قـد لاقـت المواكـب شـهرة واسـعة ، ودوت في الآفاق بما توفر لها مـن التجديـد، إذ يشـكل عصـب الشعر المهجـري، فقـد مسـتها يـد التجديـد في جوانبهـا المكونـة ؛ العاطفـة – الإيقـاع الموسيقى – المعاني – والأفكار– مكونات التجربة – الصورة الشعرية –التصوير الفني – اللغة والأسلوب.

ففــي مطلـع القصـيدة يـنص الشـاعر علــى أن الخـير والشـر يعـتملان في الـنفس الإنسـانية ، وأن الخـير مصـنوع فيهـا دخيـل عليهـا ، بينمـا الشـر متأصـل في الأنفـس مركـوز في نسـيجها ،لأنـه إحـدى مكوناتهـا ، ولا يفارقهـا حتـى لـو مـاتوا – وأن أكثـر النـاس هــي آلات يحركهـا الـدهر، وسـيأتي يـوم تنعـدم فيـه الحركـة ،– وهـذا المعـني قـد تم تناولـه مـن قبـل– وعلينـا إذن أن نتخلـى عــن الألقـاب في دنيانـا فلـيس هـذا أفضـل مـن ذاك ولا مجـال لتعظـيم النـاس في الـدنيا فالكـل سـائر ، ومـن يقـف ينـدثر، وتطحنه الحياة قد خلقوا بالطبيعة ، على إشكالية المساواة ،

بـين الجميـع ، ولا أفضـلية لأحـد ، وإنمـا أفضـل النـاس في التقيـيم الجبرانـي ؛ هـو السـائر خلـف (قطعـان) أى مـن يمشـون خلـف صـوت الرعـاة ، وهـو بـذلك يسيطر عليـه الحـس الفلسـفي حيـث التواجـد الإنسـاني ، وكـأني بـه ينظـر نظـرة مـن وراء الأفـق متخطيًـا كـل الحـواجز والحجـب ، ويعمـق نظرتـه للوجـود بنظـرة فلسفية عميقة.

(جمـع قطيـع) يمشـون خلـف صـوت الرعـاة ، وهنـا يسـيطر علـى الشـاعر فلسـفة التواجـد الإنسـاني فينظـر بنظـر ثاقـب متخطياً الموقف ويفسر الوجود بنظرة فلسفية .

ولا شـك أن هنـاك علاقـة وثيقـة بـين الفـن والفلسـفة علـى الـرغم مـن ظهـور تباعـدهما وقـد تبـدو (للنظـرة السـطحية العـابرة، أنـه لا يوجـد شخصـان أكثـر تباعـداً وانفصـالاً عـن بعضـهما ،مـن الفنـان والفيلسـوف، فالفنـان يهـتم بالآثـار الحسـية لجـوهر الأشـياء. أمـا الفيلسـوف فهـو مشـغول بـالنظر غـير العـاطفي في الموضـوعات الـتي تترابـط فيمـا بينهمـا علـى أسـاس منطقـي ، كمـا يهـتم بالأفكار العامة ومن ثم المجردة .

والفنان من زاوية أخرى معني بوجه الجمال . كما أن الفيلسوف معنى هو الأخر بتشريح الحقيقة كما أنهما مختلفان فيما يتعلق بأهداف كل منهما .

و الشاعر والفيلسوف يلتقيان في نقاط عدة أهمها استخدام الكلمات وإن اختلفت طريقة الاستخدام عند كل منهما ، فالشاعر يستخدم الكنية التي تستنهض الأفكار والمعاني في الإعراب عن صورة مميزة واضحة القسمات ، ويستعين الآخر بالعبارة، التي كثيراً ما تكون عديمة اللون وكليلة بالضرورة عن تحديد المضامين. وللفنان منطقه كذلك، ولكنه المنطق الذي يعني بتنظيم الأشياء أو مطابقة المزاج، وهو منطق المفكر المجرد الذهن، وعلى الرغم من أوجه الخلاف والتباعد القائم بين الفن والفلسفة ، فإن ثمة أوجهاً للتشابه والتداخل فيما بينهما ، ويتجلى روعة الفنان حين يبرع في اختياره لموضوعاته وانتخابه لمواده وما يتخلف

عـن عملـه مـن أثـر كلـي يصبح ناقـداً للحيـاة وللوجـود ، وهو فيلسوف بحكم طريقته الخيالية المباشرة [1] .

ويقينًا كان للغربة الداخلية والخارجية وجهت الشاعر صوب الرؤى الفلسفية فنفذ من المرئيات إلى ما هو أدق وأعمق ، كل هذا وغيره يتغلغل برؤية نافذة متخطية المألوف ، حين قال :

لـــيس في الغابـــات راع لا ولا فيهـــا القطيـــع
فالشتـــا يمشـــى ولكـــن لا يجاريـــه الربيـــع
خلـــق النـــاس عبيـــداً للـــذي يـــأبي الخضـــوع
فـــإذا مـــا هـــب يومـــاً ســـائراً ســـار الجميـــع
أعطنـــي النـــاي وغـــن فالغنـــا يرعـــي العقـــول
وأنيـــن النـــاي أبقـــى مـــن مجيـــد وذليـــل

فجبران ثائر على الضعف الإنساني؛ بكل ألوانه ، وأنماطه، يرفضه ويمقته فينفذ جبران بنظرته الذاتية في المرئيات فيرى ما لا يراه السطحيون ويتوحد مع الطبيعة بكل ما فيها ومن فيها " فنقرأ شعره ونحس كأننا في حلم سحري ونشعر بشيء من التسرية عن

---

(١) (الفنون – والإنسان) تأليف إرون إدمان ترجمة مصطفي الحبيب ط مكتبة مصر ١٩٣٨ صـ ١٢٣ – ١٢٤ .

أنفسنا والراحة والمتعة الحقيقية لأن الشاعر ينفس عما في داخلنا بما يجرى على لسانه من أبياته ، أو قل من مشاعره وإحساساته –على حد قول د شوقي ضيف –[1] ثم ينعطف الشاعر بعد أن استوفي فكرة أصالة الشر في الإنسان وتغلغله في فطرته، إلى الحديث عن الطبيعة وجمال الحرية تلك الحرية الخالصة من القيود ، وصنف البشر صنفين أسياد وعبيد ، حكام ومحكمين .

والحقيقة أن الناس خلقهم الله عبيداً وهو يأبى ويتنزه عن الخضوع جل شأنه ، وإذا أراد أو شاء أذهب الجميع. ثم يقول :

"أعطني الناي وغن " ، ليدلل على المخرج آلا وهو الغناء ، حيث الإنعتاق والهروب من الأزمات والصراعات المختلفة لبني البشر ، وأن الفن أبقي وأكثر خلوداً من هذه الفوارق والألقاب ، وهنا تظهر براعة المزج الشفيف اللطيف بين الطبيعة وبين الكيان البشرى .. فكلاهما يصيبه التغيير فلا بقاء ولا استمرارية ، فبينما الشتاء يقبل ثم يولى لصاحب مجد أو ذليل يعقبه الربيع ، فكذلك لا بقاء لصاحب مجد أو ذليل ، إنما البقاء للغناء إذ سلم الصدر ، وتعافت النفس فخلت من الأوضار ، ثم في هذا المقطع ينشد الحرية

(١) دراسات في الشعر العربى المعاصر صـ١٤١ دار المعارف طـ ٢

للإنسان، والإعلاء من شأنه وليس هناك فوارق فكلهم عبيد لله فقط . يقول مبرزاً هذه المعاني برؤيته الفلسفية العميقة .

وما الحـــياة سوى نوم تـــراوده
أحـــــلام من بمراد النفس يأتـــمر
والسر في النفس حزن النفس يستره
فإن تـــولي فـــــبالأفــراح يستتر
والسر في العيش رغد العيش يحجبه
فـــإن أزيل تـــولي حجبه الكـــدر
فإن ترفــعت عن رغــد وعن كدر
جـاورت ظـل الذي حارت به الفكر

والفكرة الثالثة : يعمق بها مواكبه حين راح يفلسف الحياة ؛ وإنها نوم وأحلام لمن ترك نفسه لهواها وألّه هواه واتبعه ؛ ونلاحظ أن شاعرنا" جبران " يذكر النفس في هذا المقطع ثلاث مرات كإشارة منه إلى الرغبات والنزوات .

ونجد ألفاظ الشاعر تكثف الإلحاح على فكرة "السر والحجب " إذ أن التغمية والإخفاء وعدم الوضوح نسج رومانسي مطروق .

وها هي النفس يُحجب سرها ويختفي فهو على أنماط وألـوان، فتـارة الحـزن يستره وتـارة الأفـراح ، والحيـاة رغـد وكـدر، أحـزان وأفـراح ، وهمـا محـل اهتمـام الـنفس ومنـاط الشهوات ، ويؤكـد في البيت الأخير من هذا المقطع أنه في حالة ترفع الإنسان عن الرغد والكـدر يظلـه الله برعايتـه وعنايتـه وهـو معـني قريـب للتصـوف أو الفلسـفة، ولكـن صـياغته الشـعرية رائعـة . فالرغـد يـوحى بـالأفراح والسعادة والرفاهية والحياة الكريمة . بينما الكدر يجمع بين الحزن – والألم والضجر وعدم الرضا ، فكل منهما يبعث على تواجد من يشـاكله ويحاكيـه مـن بـاب تـداعي المعـاني ، وتظهـر دعـوة الشـاعر للإنسان بالترفع والسمو ونبذ الخضوع لمعاني الرغد والكدر، ومقاومة تحكمهما في الإنسان . وعند ذلك يتمتع الإنسان برضا بارئه ..

لـيس في الغابـات ديـن لا ولا الكفـر القبـيح
فـإذا البلبـل غنـي لم يقـل هـذا الصـحيح
إن ديـن النـاس يأتـي مثـل ظـل ويـروح
لم يقـم في الأرض ديـن بعـد طـه والمسـيح
أعطـني النـاي وغـن فالغنـا خـير الصـلاة
وأنيـن النـاي يبقـى بعـد أن تفـني الحيـاة

وفي المقطع الرابع : يدعوا جبران إلى الابتهاج والفرار إلى الغناء والالتصاق واللياذ به ، وفي أعطاف ذلك يسرب معنى التشبث بالحرية حيث إنها مطلب الكمال ، فليس فيها حزن وليس فيها هموم، تغرق الإنسان وتقضي على سعادته ، فلا امتزاج بين الحزن والسرور ، ويدلل على هذا المعني ؛ بالبيت الذي يرشح معناه فإذا هب النسيم لم تجئ معه السموم، ثم يعود للإنسان وأرقه وهمه الذي يؤرق مضجعه قائلاً : إن النفس تجمع الاثنين معا الغيوم والنجوم ؛ وما يوصمان به من ضدية واختلاف في الإيحاء،وعود على بدء يعود إلى مهربه الجميل. آلا وهو الفن حيث لا محن ولا أرق، وهو يبقي بعد رحيل الزمن . فليس فيه صراعات ولا قوة ولا ضعف . ولا انهزامات النفس وسقطاتها ، وبلا جدال جاءت هذه القصيدة من أقوى قصائد جبران دلالة على سمات مدرسة المهجر وعلى فكر ونفسية المهاجر.

وتعبر عن المزاج الشخصي إذ" ألأنا والذات " وقد تشظت في البشر جميعاً .

وصار جبران صاحب رسالة فكرية عقلية يجمع شتات الكلمات بعضها إثرى بعض ليقنع المتلقى من خلال الحوار الثنائي بصدق ما

يقول ؛ ليؤمن مثله به والقصيدة تعتمد على الرؤية الشخصية المبثوثة من خلال حوار معبأ بوجهتي النظر المختلفتين، فالرؤية الذاتية مسيطرة بقوة على القصيدة ، وغابت الفنون والأغراض الموضوعية ، وما تقتضيه من ترتيب في الفكر وتسلسل في الأحداث، وسوق البراهين يتلو بعضها بعضا بشكل استدلالي . فالقصيدة ومضات متتالية قد تضوء العواطف كالحزن أو الفرح ، الأمل أو ألإحباط ،أو تطلعنا على الأحاسيس المثقل بها كاهل الرومانسي المعذب،

فنرى جبران في نفيه . حيث الحزن – اليأس. ينطلق معبراً عن الطبيعة ملتحماً بها شأنه شأن الرومانسيين " فأدبهم الغنائي كان عاطفياً وخاصاً بوصف الطبيعة [1]

والقصيدة منكفئة على سمات الفن المهجري ويعلوا فيها مؤشر الفن بجزئياته مما يرفع من مكانتها " إن الذي يحدد مكانة العمل الفني ليس ما يحتويه أو يقوله أو يعبر عنه كما قد يتصور البعض ، بل وعى الفنان بالتراث الفني، أو بقول أبسط الذي يحدد قيمة العمل الفني – إلى جانب الموهبة – هو الفن نفسه[2]

---

(١) تاريخ ألأدب الفرنسي جوستاف لانسون ت محمود قاسم جـ٢ صـ ٢٣٩
(٢) المدخل إلى النقد رشاد رشدي مطبعة الأمانة صـ ٢٣ ١٩٨٤

لذا فالعدسة التي ينظر إليها ويعبر من خلالها عما يجيش في صدره من حزن وسرور ، حب وبغض ، يأس وتفاؤل ، تراخ ونشاط ... عدسة الطبيعة إذ التحم بها ، ووجد نفسه فيها.

وقــل فـــي الأرض من يرضـي الحــياة
كما تأتيه عفواً ولم يحـــتكم به الضـــجر
لـــذاك قـــد حولوا نهــتتر الحياة إلى
أكــواب وهم إذا طــافوا بها خـــدروا
فالنـــاس إن شـــربوا ســـروا كأنهم
رهن الهوى وعلى التخدير قد فطروا
فـــذا يعـــربد إن صلـــى وذاك إذا
أثرى وذلك بالأحـــلام يخـــتمر

وفي المقطع الخامس : يستعرض لنا الشاعر أن من يرتضي الحياة ثم يأخذها كما هي ويحياها بعفوية هم قليل ، والكثير منهم يتحكم به الضجرـ لما يحمله في نفسه من عدم الرضا وأتى بهذا المعنى في أسلوب خبري ، وكأنه مسلمة من المسلمات – ولذلك : حولوا نهر الحياة الواسع إلى أكواب من وهم وازداد تمسكهم بها، وتحكمت فيهم الرغبات والنزوات وصاروا تحت تأثير هذا الوهم الذي يشربونه ويجدون فيه متعة . وأنهم إن شربوا هذا الوهم

ازدادوا سعادة وكأنهم رهن هوي النفس، وكأن هذه فطرتهم التي فطروا عليها

ثـم راح يعـدد الكـثير نماذجـاً بشـرية ذات طبـائع مختلفـة التكوين، فهي تفعل الشيء ونقيضه تجمع بين الصلاة والعربدة . فـذاك إذا أثـري وتملـك تغير ، وهـذا يشرب الكأس الوهميـة الـتي تمتلـئ أحلامـاً – وعنـدهم هـذه الأرض خمـارة والـدهر صـاحبها، والأوائل فقط رضوا وانتشوا بحق ، وقل إذا رأيت من به صحو فإن رأيتـه فسله هـل القمـر يستظل بـالغيوم ؟ بـالطبع لا . لأنـه إلى زوال سـوف يمطـر وينتهـي ويرحـل فالـدنيا ليست نهايـة الرحلـة ولا ختـام المطاف والسعي .

فالأرض خـــمارة والـــدهر صاحبها
وليس يرضي بها غير الأولي سكروا
فإن رأيـت أخا صـــحو فقل عجباً
هل استـظل بغـــيم ممطـــتر قمر ؟
ليس في الغابات سكـر من خيال أو مدام
فالسواقـــي ليس فيـها غير أكسير الغمام
إنما التخدير ثـــدى وحليب للأنام

فـإذا شاخـوا وماتـوا بلغوا سن الفطام
أعطني النـاي وغــن فالغنا خير الشراب
وأنيـن الناي يبقـى بعد أن تفني الهضاب

وفي المقطع السادس :عـاود مـرة أخـرى التأكيـد علـى فكـرة الفن هو الحقيقة المنشودة ، فالتعلق بأى شيء أخر خدعة ، لكن لا يكتشفها الـبعض إلا وهـو مفـارق للحيـاة بعـد شيخوخته إذ رضعوا تلك الفكرة وعليها شبوا ، ونرى التكثيف وقد أولع به جبران فصوته عالي النبرة ، فإذا كان التكثيف تنوء به أبيات القصيدة كلها إلا أنه بدا هنا بشكل لافت .

" والتكثيـف في البنـاء هـو أن تكشـف حركـة إيقاعـه البنـائي، خلال جملة علاقاته الصياغية عن تجمع متصاعد ، وحثيث لأجـزاء المعنـى والإلحـاح عليـه، للوصـول إلى ختـام حاسـم يجلـى إيجابيـة واضحة لتنقلات هذا المعنى أو الموقف وأركـان التنويـع في القافيـة والـوزن والأشـطار والأبيـات عـون في إبـداء هـذا التكثيـف وتلاحـم البناء[١]

(١) بناء القصيدة في دواوين شعر المهجر الجنوبي رسالة دكتوراه هيا محمد عبد العزيز الدرهم د سهير القلماوى د جابر عصفور ١٩٩٥ صـ٤٣٨

ثم يعاود الحديث عن معشوقته التي يغنى لها وبها ، آلا وهى الحرية فيتحدث عن مزاياها ،معجباً بها لأنه لا يري فيها سكراً أو سكارى ولا مطامع ولا أكواب وهم ، ويعانق هذه الطبيعة الخلابة الصافية التي ليس فيها خداع ولا نفاق ، ويطل علينا النهج الرومانسي. إذ تطلع الرومانسيون إلى الطبيعة ، باعتبار أن فيها الخلاص ، وأن الفرار إلى الأماكن البعيدة عن المدنية الخانقة هو الحل ، ويقصون الدوافع والطرق لذلك "وهم يقصون ذلك من خلال تجارب ذاتية تعرضوا لها هم بذواتهم ، ونراهم يصبغون تجربتهم الذاتية بصبغة الشاكي الآسيان المتوقد المشاعر "الذي يتجه بأسلوبه إلى القلب أولاً وقبل كل شيء وليس إلى العقل بطبيعة الحال " بينما الأوهام التي يتعلقون بها وكأنهم مخدرون كأطفال ، والوهم ثدي لهم أي أن هذه الدنيا بأوهامها التي تسيطر عليهم قد بعدتهم عن الحكمة وفهم الحياة فهماً حقيقياً .

فإذا تقدموا في السن وشاخوا يتنصلون ويبتعدون عن هذه الأوهام والمطامع .والخيال بهذه الوضعية خيال خلاق مثمر يظهر تطلع النفس الإنسانية وعنف مطامعها وسيطرة الوهم، وتنتهي بقناعة

الإنسان وزهده في تقدم سنه ويعود إلى مهربه الجميل آلا وهو الفن والغناء فهو خير الشراب ، ورجع هذا الفن الرفيع سيبقي بعد زوال الهضاب العالية القوية، والمادة الصلبة والحسية التي يعلق بها البعض انبهارا وافتتانًا ، إذ أن الروحانيات أبقي منه و أخلد.ونجد ارتباط الوحدات الدلالية – الفناء – الغناء بشكل متجدد ممتد وتكرار مقطع : أعطني الناي وغنى مشع الدلالة وليس معناه قصر الدلالة على المنولوج الداخلي . فهناك مبدأ " نسبية الدلالة يندر أن تكون هناك كلمات تتفق في ظلال معانيها اتفاقاً كاملاً أو من الممكن أن تتقارب الدلالات لا أكثر ولا أقل " [(١)]

والدين في الناس حقل ليس يزرعه
غير الأولي لهم في زرعه وطر
من أمل بنعيم الخلد مبتشر
ومن جهول يخاف النار تستعر
فالقوم لولا عقاب البعث ما عبدوا
رباً ولولا الثواب المرتجي كفروا

(١) شعر إيليا أبو ماضي دراسة دلالية رسالة دكتوراه نصر الدين صالح سيد إشراف محمود فهمي حجازي ، د عبد الحكيم راضى ١٩٩٠

كأنما الدين ضـــرب من متاجـــرهم
إن واظـبوا ربحوا أو أهـــملوا خسروا

وفي المقطـع السـابع : يقـول إن الـدين حقـل لم يـنجح في زراعتـه غـير أولئـك الـذين لم تأخـذ الـدنيا منهم أنفسهم فمـنهم مـن يملك المعرفة والتأمل، ويأمل بنعيم الخلد ويستبشر بهذا ، ومنهم مـن هو جاهل ،لكنه يخاف النار والعقاب ، فالناس لولا العقاب في الآخرة ما عبدوا الله ،

فهي عبادة خـوف ويطمعـون في الثـواب ولـولاه كفروا ، وكـأن هذا الدين تجارة يقيسونه بمقياس الربح والخسارة . وهذا مـا يرفضـه شاعرنا جبران إنه يوضح قوة النزعة الدينية وسيطرتها على الشـاعر إذ ينتقد هاتين الشريحتين نقدًا بناءً يتكئ على رفض كل مزاعم الـنفس الأمارة بالسـوء ،وعـدم الرسـو في متطلباتها ، والـتي لا تقـوم إلا علـى الربح والخسارة دون الاهتمام بالروحانيات.

والحـق أن وجـه الطائفيـة البغـيض قـد طالعـه شـعراء المهجـر وسيطر على البعض منهم ، والـبعض الآخـر وجـدوا السـماحة الجميلـة في بلاد المهجر وحرية المعتقد ، وقارنوا بينها وبين التعصب الأعمـى في المشرق العربي عامه ولبنان خاصة وخاصة أن ذلك القبح كان من

الدوافع التي قذفتهم خارج البلاد ورمت بهم إلى الغربة. فهو يشيد أن ذلك القمء لا يوجد في الغاب .

لــيس في الغابـــات ديـــن	لا ولا الكفـــــر القبــــيح
فـــإذا البلبـــل غنـــي	لم يقــل هـــذا الصــحيح
إن ديـــن النـــاس يأتـــي	مثـــل ظـــل ويـــروح
لم يقــم في الأرض ديـــن	بعـــد طـــه والمســـيح
أعطـــني النـــاي وغـــن	فالغنـــا خـــير الصـــلاة
وأنيـــن النـــاي يبقـــى	بعـــد أن تفـــني الحيـــاة

المقطع الثامن ويجلى فيه قوته واستطاعته ، وكيف أنه يقبض على حريق مشاعره الملتهبة من خلال العودة إلى الحرية في الطبيعة واللاقيود

فها هي الغابات بطبيعتها لا الدين فيها ولا الكفر القبيح ، أي أنها ليس بها هذه التجارة بالدين ولا فيها الكفر القبيح ،

وقد وصف الكفر بالقبح لأن هناك فهماً دينياً آخر أعمق من هذا الفهم الذي أفسد الحياة الملأى بالبشر أصحاب النفوس التي

يسيطر عليها الهوى ويملأها الرغبات أولئك الخاضعون لنزواتهم ونزعاتهم ، فإذا البلبل غني لم يتشدق بصحة غنائه ويدعي أنها الصواب .

إن دين الناس مثل ظل ليس ثابتاً بل يروح ويذهب عنهم وهذا ما يرفضه شاعرنا جبران فليس هناك دين حقيقي بقي بعد الإسلام والمسيحية ، وبعد أن وضح تلك الحقيقة قال:

لا أمل ، ولا أوبة ولا مهرب إلا إلى الفن الجميل وما فيه من معان خالدة باقية بعد أن تفني هذه الحياة ومن أجمل ما ختم به جبران مواكبه ، كونه قد نص في الختام على أنه لا دين في الأرض من بعد دين طه صلى الله عليه وسلم، ومن قبله المسيح، مما يوحى بفرادة التجربة لديه ، وكذا خصوصية الرومانسية الزاعقة والتي ضمت الكون بأسره ، بل الوجود بكل تفاصيله ودقائقه ، لأن اعتماد النزعة الرومانسية الحالمة يغطى بجناحيه كل شعراء جماعة المهجر بلا استثناء"[1]"وبهذا كله تكون المواكب استجمعت شيات متنوعة من النظرة الثابتة لتحليل الكون ، والوقوف على مزاياه وعيوبه ، أمنه ومخاطره ، وجمعت بين متناقضات محمودة ، ففي الوقت

---

(١) عن الأدب العربي المعاصر مدارسه وأعلامه صـ ٧٦ د محمد أحمد العزب ٢٠٠٢ ب - ت، ب ج -ا

الذي يذوب فيه الشاعر في الكون وتتشتت نفسه شظايا ملتحمة بعناصره وجزئياته ، نجده يأووب إلى داخل ذاته لا للتقوقع فيها ، وإنما استبطانها وفهم ما بها ، وما يتنازعها وما تهرب منه وما تستكين له. ، ما تهرب منه وما يتطلع إليه في تجربة إنسانية يتحد فيها مع الموجود ، والكون إذ نفذ فيه برحابته، ومزق القيود بضيقها وأراد معانقة الوجود، إذ إنكفأت ذاته على حب شديد له ويصدق فيه قول الشاعر الكروى حين يخلع على الكون هيامه بحسنه وجماله المعبود

من لنفس تود لو تغمر الكون
هياماً بحـــسنه المعــــبود
منك إلى هذا الوجود بشيء
أنا لا استطيع ضم الوجود [٢]

□

(٢) ديوان الشاعر القروى ص٥٤

سمات الأدب الرومانسي
والمهجري وتحققها في المواكب

تحدث في سمات قصيدة المواكب الكثيرون وأفاضوا باختصار تارة ..وبإسهاب أخرى ، وقد أشرت في عجالة إلى بعض خصائص المدرسة الرومانسية والتي تحققت في مدرسة المهجر ، وبدي أكثر ما بدي في قصيدة "المواكب" لذارأيت من صوابية التناول أن أتحدث عن هذه السمات وتلك الخصال من خلال أبياتها ،إذ رأيت أن ذلك يجمع بين الحسنيين ويفر من الوقوع في وهذة التكرار تأكيد على خصال المدرستين ومدى تحقيق ذلك في الأبيات.

وبدأً يقول د / النعماني : في قصيدة المواكب نرى ميل جبران إلى المقطع ذى القوافي العشر، فالقصيدة تتألف من مائتي بيت وثلاثة أبيات ، وتقوم على الحوار بين شخصين ، أو صوتين ، أحدهما صوت حكيم ، يتحدث بأسلوب الحكم عن الثنائية في الحياة والمجتمع . وقد جاءت الأبيات معبرة عن ذلك ، موحدة القافية ، وهى من بحر البسيط ، ويبدو أنه كان في خاطر جبران تكون أجزاءه التي تحمل كلام الحكيم في شكل رباعيات ، لكنه لم يستطع ذلك إلا في أحد عشر موضعاً على حين جاء كلام الحكيم

ثلاث مرات في خمسة أبيات أما الصوت الأخر فهو صوت الفتى الذي راح يرد على الحكيم ، وتوزعت ردوده على سبعة عشر موضعاً وهي تبين أن مثل هذه الثنائية لا وجود لها في الغاب ، لأنه لا يسود فيه إلا التوافق والانسجام .[1] وهذه المطولة ألقى عليها الأدب الغربي ظلاله، فهو ممتلئ بهذا النهج إذ هناك شكل مستحدث في الهيكل المنظم للقصيدة ، فكل رد من ستة أبيات من مجزوء بحر الرمل ، مع تغير القافية ، الذي يرجع – بعامة – إلى نمطين . وجاء الرد في موضع واحد فقط بقافية موحدة ، وفي كل رد تأتى الأبيات الأربعة الأولى من أبياته الستة بالقافية "أ" على حين يكون المزدوج الأخير بقافية مختلفة ويعد هذا المزدوج بمثابة اللازم أو القرار ، حيث يؤكد الفتى أن صوت الناي يرمز إلى محو الثنائية التي يشير إليها الحكيم من قبل . ومن هنا يكون الشطر الأول من البيت الأول في المزدوج :

أعطني الناي وغنِّ

ويكون الشطر الأول من البيت الثاني

(١) جبران بين التمرد ومصالحة النفس صـ٥٢

وأنين الناي أبقى

وفي الرد السابع ، استخدم الشاب الشكل نفسه ، على حين جمع رده الأخير في عشر مزدوجات ، وهناك توليد للمعاني بعضها من بعض ، والصور قد تأتى كلية ثم تجزء ، أو جزئية ثم تركب. وهذه الخصوصية في الإبداع توحي بتمكنه من اللغة. وتكرار ذلك المزدوج على اختلاف العجز وتغيره مقابلة مع اتفاق الصدر وثبوته أثرى القصيدة وصبغها بشيات مكثفة من التنوع ، عُد كل مقطع خاتمة متممة للفكرة التي ساقها في البداية ثم ذيلها بالمزدوج.

ففي البداية تكلم عن فكرة " المُخضع " و" العبيد" الخاضعين له . فجاء المزدوج بفكرةأن الغناء راع للعقول وأن أنين الناي أفضل من المتناقضين .. المجيد – الذليل

أعطني الناي وغنِّ   فالغنا يرعى العقول
وأنين الناي أبقى   من مجـــيد وذليل

وفي الفقرة التالية تحدث عن أصالة البهجة الماحية للمحن ، وزيف دخول الحزن والغيوم :

أعطنا الناي وغنِّ   فالغنا يمحو المحـــن
وأنين الناي يبقى   بعد أن يفنى الزمن

وفي المقطع الثالث تحدث عن السكر – المدام – الخيال – أكسير – الغمام – حليب– فجاء .

المزدوج

أعطني الناي وغنِّ فالغـــــنا خير الشراب
وأنين الناي يبقى بعد أن تفنى الهضاب

المقطع الرابع : يتحدث عن الدين ويقر بأن لا دين بعد طه والمسيح والمزدوج :

أعطني الناي وغنِّ فالغنا خير الصلاة
وأنين الناي يبقى بعد أن تفنى الحياة

والفكرة التالية: فكرة العدل فالثلج يذوب إذا طالعته الشمس

والمزدوج :

أعطني الناي وغنِّ فالغنا عدل القلــوب
وأنين الناي يبقى بعد أن تفنى الذنوب

وفي المقطع التالي يتحدث عن القوة والعزم فجاء .

المزدوج

أعطني الناي وغنِّ فالغنا عــزم الوجـــود
وأنين الناي يبقى بعد أن تفنى الشموس

ثم يتحدث عن الظرف وجمع المتناقضين ، فجاءت خاتمة المقطع:

أعطني الناي وغنِّ فالغنا خير العلوم

وأنين الناي يبقى بعد أن تُطفي النجوم

فالعلوم لا تثبت إنما هي متغيرة ، ثم يتحدث الصوت الأول عن الحزن ، وكيف إن الغابات بها قيود والطبيعة " زهر اللوز " تمنح غير مفرقة بين الحقير والكريم :

أعطني الناي وغن فالغنا مجد أثيل

وأنين الناي يبقى من زنيم وجليل

وهى تؤكد الفكرة السابقة ، فالغناء قديم وصوت الناس أخلد من زنيم وجليل ، واستعماله كلمة (جليل) غير موفقة لأنها وهى مشترك لفظي يصح أن تحمل على معنى عظيم فيكون تضادأو على معنى حقير .فيكون تكرار ،ثم يتحدث عن المخاتلة أو المخادعة والغش ، وكيف أن الندل دائماً لطيف ليوارى نذالته ،ليخدع الآخرين :

أعطني الناي وغن فالغنا لطف الوديع

وأنين الناي يبقى من ضعيف وضليع

فالضعيف والقادر فانيان والباقي هو الناي ، ثم يتحدث عن

الانكسار والانهزام و الذي في طيه انتصار :

أعطني الناي وغن   وأنسى ظلم الأقوياء
إنما الزئبق كأس   للندى لا للـدمـار

فنجد الصدر الثاني من المزدوج تغير لأول مرة ، ثم ينفي الملل عن الغاب .

أعطني الناي وغن   فالغنا نار ونور
وأنين الناي شوق   لا يدانيه الفتور

فالاختلاف في كلمة في صدر المزدوج ، ثم يتحدث الشاعر عن الثنائيات المتضادة نفس – جسد ، الهوى – الندى[1] جاء المزدوج :

أعطني الناي وغن   فالغنا جسم وروح
وأنين الناي أبقى   من بوق وصبوح

ثم يتكلم عن الدخيل والأصيل في الغاب ،

أعطني الناي وغن   فالغنا جسم يسيل
وأنين الناي أبقى   من مسوخ ونغول

و يتكلم عن الموت والفناء ... :

---

(١) لا يوجد تضاد مباشر إنما ينتج البيت تضاد مركب ، فالعناصر الطبيعية كلها بعضها من بعض على أحوالها المختلفة .

أعطني الناي وغن فالغنا سر الخلود

وأنين الناي يبقى بعد أن يفنى الوجود

ثم يزيل هذا المعنى بمزدوج أخر ينفي القول بلا عمل ويدعو للآخرة

إنما النطق هباء فأفدني ما فعلتا

ثم يتحدث عن تواصل الإنسان مع الكون ، عرف ذلك أم لم يعرف .

أعطني الناي وغن وأنسى داء ودواء

إنما الناس سطور كتبت لكن بماء

للدلالة على فقد الأثر الطيب من الإنسان

..... ومن خلال المواكب تتضح سمات الشعر المهجري وأبرز خصيصة أبرزتها هي قمة من نحو التسامح الديني.... فقد مقت الهجريون التعصب الديني الذي شكل أحد معاول الهدم الضاغطة عليهم والدافعة للهجرة من البلاد لذا عُد "الممثل الحقيقي لهذا التحرر الدينى هو جبران الذي هاجم التعصب ، وحمل على التقاليد الدينية الموروثة "[1]

---

(١) التجديد في شعر المهجر د محمد مصطفي هدارة ١٢٣

وهو القائل:

والدين في الناس حق ليس يزرعه
غيــرُ الأولـــى لهم في زرعه وطرُ

ليس هذا في الشعر فقط بل في النثر أيضاً:

ومن أقوال جبران " أحبك يا أخي ساجداً في جامعك ، وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك ، فأنت وأنا أبناء دين واحد هو الروح..

فقد تمزق الوطن العربي نتيجة لثلة متعصبين فاسدة، عملت على نشر المعادة للأخر وقتله، ففر جبران من هذا الرق، ودعا الجميع إلى التسامح الديني ، وحرية العبادة في النثر "أنا مسيحي ولي الفخر بذلك، ولكنني أهوى النبي العربي ، وأحب مجد الإسلام، وأخشى زواله ،إنني أسكن المسيح شطراً من حشاشتي ، ومحمد الشطر الأخر "[١]

وفي هذا الصدد يدلي د زكى مبارك بدلوه حين يقول:[٢] لكل أدب من الآداب القديمة خصائص وخصيصة الأدب السرياني هي الإسراف في الكآبة ، فجبران الحزين هو البقية من روح

---

(١) المرجع السابق صـ ١٢٦- الرسالة يناير ١٩٤٢
(٢) التجديد في شعر المهجر صـ٨٨

السريان القدماء وعلة الحزن السرياني أو السوري لا تحتاج إلى توضيح ، فأولئك أقوام كان تاريخهم كله عراك في عراك ولم تكن بلادهم إلا محترباً ، يتضاءل فيه الفقر والغنى ، والعبودية والحرية ، والخوف والأمان، بغض النظر عن احتراب العواطف والشحون " .

كما تتبدى بعض الظواهر منها : - أصالة النزعة الإنسانية. إذ سبحت القصيدة في أجواء شعورية معبأة بشحن إنسانية ، تنم عن عواطف مضطربة تقبع خلف هذه الأبيات المنظومة واتسعت رقعة الحب فلم تعد محصورة في شخصية بذاتها بل عانقت الوجود حتى استحال الحب " عندهم نوعاً من العبادة الصامتة والتقديس ، لا تسفل به نزوة طارئة ولا ينتقص من شعور جامح ، مطلق السراح .

إذ كان المهجريون أكثر إحساسا وتماساً مع الوشائج الإنسانية المطلقة ،لا تحد بوطنية ولا تطلقها عصبية بل منطلقة ، أرواح في سماء الإنسانية متخلصة من أدران المادية . والأدب عندهم لحناً فريداً "جوقته " الكون كله بشره وجماده وطيوره وحيوانه ونباته" (١)

---

(١) التجديد في شعر المهجر صـ ٩٥

فقد استوعب جبران الإنسانية في ذاته فنفثها في قصيدته فرغم خلو المواكب من الحديث عن المرأة – وكانت قبله قبلة القصاد من الشعراء – إلا أن القصيدة حازت على إعجاب الجميع ،

-غلبة الحنين كان جبران كغيره من شعراء المهجر يكتب حنيناً بيناً" زاخرة الفؤاد بحب الوطن ، مفعمة النفس بذكراه والتغني بأمجاده والحنين إلى الأوطان غرض قديم منذ الشعر الجاهلي ، والشعراء يفيضون فيه، فالشاعر القديم " كان يهتاج حنيناً إلى مغناه القديم في قلب الجزيرة فيجرى لسانه بالشعر معبراً عن فيض وجدانه " إلا أن هذا المنحى تبلور بشكل مبهر عند شعراء المهجر فقد اجتمع الإحساس العميق بالوطنية وفيض الشعور بالقومية " فانبعثت مزاهر شعراء المهجر تهزج بالأناشيد الحماسية ، والقصائد التي تتغنى بحب الوطن وتهيب به أن ينهض من كبوته ، وتنفض عنه غبار الجهل والجمود[1]

هل اتخذت الغاب مثلى　　　منزلا دون القصور
فتتبعت السواقي　　　وتسلقت الصخور

(١) الجديد في شعر المهجر صـ ٩٦

-نزعة الألم ..تتصارع في المواكب عدة عوالم متباينة، فثمة اختلاط للأمل بالألم ، والألم يغلب بشكل عام على شعر المهجر ، حزناً عند تذكر ماضيهم في بلادهم حتى قال فوزى المعلوف .

ألم كلها الحياة فلا تضحك ثغراً إلا لتبكى عيــوناً

وبذلك فإن المواكب قد خالفت هذه الركيزة إذ يشع فيها الأمل ويطالب أحدهما الأخر .... بالسهو عن الألم وتناسيه.

لـيس في الغاب عقيم لا ولا فــيها الدخـــيل

إن في التــمر نـــواة حفظــت سر النخـــيل

-غلبة الاستخبار النفسي ... أو استبطان الذات حيث "يبحث جبران عن ذات ويستبطن أحاسيسه ويخرجها زفرات وإن كانت فردية ، إلا أنها إنسانية جامعة، وما الشاعر إلا فرد تساقط إليه خصال الجنس البشرى وأوتي ملكة الأداء والتعبير عنها "

أتحسب أنك جرم صغير وفيك أنطوى العالم الأكبر

وتلك النظرة عبارة عن اختلاف الزاوية ، إذ يوجه الشاعر مرائيه ونظرته إلى داخل نفسه لا إلى خارجها ، كما كان يفعل أصحاب المذهب السابق – الكلاسيكيون – وهى رؤية تتوافق مع الدراسات الحديثة في استبطان الذات والانشغال بالأنا .

فكرة المواكـــب

إن الفكـرة الـتي تلـح علـى الشـاعر جـبران في "مواكبـه" ويتـأول مـن خلالها الحيـاة ليست نظـرة مجـردة بـل هـي نظـرة مقرونـة بفكـرة عقليـة نتجـت عـن مراقبتـه للنـاس وأحـوالهم فقـد عـرف أن الـنفس الإنسـانية تجمـع بـين الأضـداد في داخلـها ، ويعتمـل فيهـا صـراع أزلـي بـين الخـير والشر ، ومالهمـا مـن تـأثير سـلبي أو إيجـابي علـى الإنسـان وسـلوكه وبالتـالي علـى منطقـه في النظـر إلى الأشـياء الإنسانية، ومـا تحملـه مـن خـير وشـر ومـن أفكـار ومعـاني ، وبـين الخـير والشـر والجسـد والـروح ينـتج الإنسـان فنـاً وفلسـفة ، وهـا هـو جـبران خليـل جـبران شـاعر المهجـر ى الكـبير والـذي ذاع صـيته وعرفـه الكـثير والكـثير مـن أبناء الوطن العربي وخارجه،

وهـو إلى الآن محـط أنظـار الأدبـاء والمـثقفين ودارسـي الأدب لمـا ينطـوي شـعره مـن تأمـل فلسـفي وجمـالي للكـون ، والإنسـان ومـا يتمتـع بـه مـن قـدرة خلاقـة علـى التـأثير السـمعي والنفسي على القارئ لأشعاره .

فجبران شاعر موهوب بدرجة كبيرة وهو النبع الذي فاض منه النغم ، وقد دعا إلى التحرر من اللغة التقليديةفي الشعر ، وقبس من الرومانسية الغربية وما يجري فيها من ألم وتأملات في الطبيعة والوجود ، وقصيدة المواكب تعد الأصل الذي يصدر عنه الشعر في المهجر الأمريكي جميعه وفيها يثور على المدينة وأوضاع الحياة الإنسانية وما يرتبط بها من رق وحرية وعلم وجهل وحق وباطل وقوة وضعف وسعادة وشقاء ، داعياً الناس أن يفروا من جحيم تلك الحياة إلى الغاب والطبيعة حيث الفطرة والبساطة ويتطلع إلى وحدة الوجود وما يطوى فيها من ألفة. ويرمز إليها بالغناء على الناي جاعلاً هذا الغناء خاتمة لكل نشيد من أناشيد قصيدته ، ودائماً تفيض أشعاره بالحيرة والشمس والألم والتأمل في الطبيعة في لوعة وأنين،– على حد قول د / شوقي ضيف [1] يقدم لنا في هذه القصيدة (المواكب) الجمال الفلسفي – والعاطفة والفكر – في نتاج فني رائع التأثير لمشاهداته وتأملاته

---

(١) فصول في الشعر ونقده د / شوقى ضيف صـ ٢٩٢ دار المعارف ط ٣

الكونيــة والحلــم بإنســان فاضــل لا يحمــل الخطايــا ولا يقــدمها ، يشــع نــوراً وحبــاً وفضــيلة – وهــذا لــيس غريبــاً علــى جــبران فهــو متمــرس علــى هــذا المجــال الإبــداعي فلــه قصــيدة (الــبلاد المحجوبــة) هــذه الــبلاد الفاضــلة ذات الإنســان الراقــي الخيِّر .

كما تشع أضواء المثالية في فكر جبران الشاعر:

حيــث يقــدم لنــا الــنص فكــراً فلســفياً ناتجــاً مــن تــأملات عميقــة للكــون مــن حولــه ، يرصــد حركــة الحيــاة وإيقاعهــا وزيفهــا واهتمــام النــاس بــه ، وخضــوعهم لتأثيرهــا مطلقــين لأنفســهم العنــان حتــى صــاروا كالأطفــال الرضــع مــن ثــدي الأوهــام الــتي تخــدرهم وتخــدعهم ويجــدون فيهــا حليبــاً لهــم ، ولا يتركــون الرضاع إلا في ألشيبه إذا شابوا .

أو مــاتوا ولــولا الثــواب والعقــاب مــا عبــدوا وكــأن الأمــر تجــارة لهــم ، وهــو هنــا متــأثر بالمنــاخ الثقــافي الســائد في أمريكــا الــتي يقضــي فيهــا غربتــه ولم يبــق في الأرض غــير الأديــان الســماوية . ونلاحــظ في الــنص " الغلبــة الفكريــة والنزعــة الفلســفية علــى مجرياته وأبياته " .

فمـلاذه وخلاصـه في الفـن الـذي يبقـي أثـره وإن زالـت الهضـاب المرتفعـة ، ونجـده متشـبثا بمـلاذه وملحـا عليـه في نهايـة كــل مقطوعــة إذ يــرفض فيهــا مــا يــراه مــن طبــائع الــنفس والمجتمع الذي يحيا فيه شرقياً أو غربياً...

ويحلـم بعـالم أفضـل وإنسـان أرقـي ونفـس بشـرية أنقـي في كل شيء في الإحساس والمشاعر والاعتقاد الديني .

الإيقاع في النص

يشكل " الإيقاع الموسيقى وسيلة إنسانية منذ القدم في التعبير ، عن حياتها الوجدانية وانطلاقًا من هذا الشكل الفني، مزجت الكواكب بين وزنين عروضيين ؛ مع تنويع في الروي واعتماد المقاطع ، مع محافظة على نظام الشطرين من صدر وعجز، واعتماد على التصريع في المطلع ، في محاولة لتصنيف القصيدة على أساس المقارنة مع النموذج المثال العمودي البناء و قراءة النص قراءة أفقية ، وتفهم المعاني التي تطرق إليها الشاعر، حيث الأفكار متنامية داخل القصيدة، فالفكرة تستوفي ثم تنسل إلى فكرة أخرى ، وهذا الانتقال يتم بيسر وسهولة ، فحسن التخلص مسيطر على المقاطع فيتحدث عن ظواهر طبيعية (الغاب – الشتاء – الأرض– الزهر–الغناء – الحقل – الصفصاف – الشمس – الثلج) ولأن القصيدة يسيطر عليها الحوار فهناك تنوع موسيقى مما نأى بها عن الرتابة والاعتياد ، ويعد منطلقاً فنياً حاوياً حسن الوقع والدلالة المشعة من التصوير الجيد.ونحس بشكل متوارى أحياناً سافراً مرة أخرى عمق الوشائج الوطنية ، إذ تقطر الصورة بالفيض من الحنين إلى الوطن البعيد ، وتثبت اقتدار جبران إذ حوت الاتجاهين ، فإلى جانب سيطرة النزعة الرومانتيكية

بمقتضياتها من (مسالمة ونعومة ورقة)، هناك رغبة حادة عنيفة في التعبير ؛ داعية إلى نبذ الواقع المرير ورفضه وعدم الاستسلام له .كذلك كان هناك حضور لموضوعات إنسانية (الناس–الخير – الشر – الدهر – العدل – الموت – المجد – الجسم – الروح) كما أنه يخلص دومًا إلى الوقوع على الألفاظ الموحية ذات الدلالة الواضحة بالإضافة إلى تنويعه بين أساليبه التعبيرية فجمع بين الخبر والإنشاء ، كذلك ملاحظة موازنة الشاعر بين الأسلوبين كأنهما يعكسان صورتين من صوره الفنية بين الوصف الحسي والتخيل المعنوي ، والمستوى البلاغي التشبيه – المجاز – الاستعارة – الطباق – التكرار ... بالإضافة لوجود الحوار الداخلي الذي يعكس التأمل في الحياة والوجود من خلال المقارنة بين عالم الناس في الواقع و عالم الطبيعة – التناقض والتصادم – الصراع .

ناهيك عن سيطرة الإحساس بالذات والذي يسيطر على النص ويتخلل حناياه فهو ...يحكي – يصف – يصور – ينفي – يرغب مفصحاً عن ذاته وإحساسه وشعوره الجياش والملتهب الأوار مما أكسب القصيدة ثراءاً كبيراً ، وأوضح مكانة جبران الأدبية ومشاركته الفاعلة في مسيرة وحركة تطور الشعر العربي.

□

البناء الهيكلي للمواكب الجبرانية

اعتمد البناء الهيكلي للمواكب الجبرانية على الإطار السردي كإطار عام وقد تمايزت به عن الشعر العمودي القديم، وحوي النص أبنية متعددة بناء سردي إذ يأووب الشاعر بذاكرته إلى الخلف بناء تقريري ." وما تقدمه من معطيات الإلزام والتحديد والاكتفاء وطغيانها في صياغات البناء سمة لافتة " [1] وبناء وصفي إذ أصبحت القصيدة لوحات تلتقط مناظر انبهر بها الواصف وعجزت صياغتها عن تقديم لمحات للتفاعل بين المشهد وواصفه "[2]

كما أن البناء الخطابي هنا منساب خفيض الصوت ؛ إذ يسرى نصحه ليقر في وعى المتلقين إذ زاوج جبران بين وزنين عروضيين هما البسيط و مجزوء الرمل ، كما نوع في الروي بين عدة أحرف " الراء – العين – اللام – الباء " ، بالرغم من محافظته على التصريع " جبروا – قبروا " في المطلع ، واعتماده نظام الشطرين صدراً وعجزاً ، وبذلك

(١) بناء القصيدة في دواوين شعر المهجر صـ ٤٣٦
(٢) المرجع السابق صـ ٤٣٦

يكـــون جـــبران قـــد خـــالف وغـــاير في الشـــكل التقليـــدي للنمــوذج المثــال ؛ دون الانســلاخ عنــه ، ممــا يعتــبر نزوعــا نحــو التجديــد والتطــوير مــن الــداخل ، انســجاما مــع الشــعور بالحاجــة إلى الحرية الواعة في الإبداع الشعري .

وهـــو هنـــا يتوافـــق كليـــةً مـــع نظـــم القصـــيدة المهجريـــة وبـــذلك يكـــن جـــبران في مواكبـــه قـــد تنـــاغم تناغمـــاً بـــارزًا مـــع مـــنهج القصـــيدة المهجريـــة يقـــول : د / شـــوقي ضـــيف عـــن المواكـــب مبـــدياً تلكـــم الملامـــح الفارقـــة في تكـــوين وتشـــكيل عـــالم النســـق المهجـــري حـــين أبـــرز موقفـــه مـــن مواكـــب جـــبران "تعـــد الأصـــل الـــذي يصـــدر عنـــه الشـــعر في المهجـــر الأمريكـــي جميعــه ، وفيهــا يثــور علــى المدينــة وأوضــاع الحيــاة الإنســانية ومــا يــرتبط بهــا مــن رق وحريــة مــن علــم وجهــل ، . ثــم يقــول وهــذه الأوتـــار الـــتي شـــدها جـــبران إلى قيثارتـــه عزفـــت عليهـــا أنامـــل المهـــاجرين إلى أميركـــا في الشـــمال والجنـــوب مـــع مـــا يمتـــاز بـــه كـــل مـــنهم في مزاجـــه وطبيعتـــه " [1]وقـــد حـــوت المواكـــب الأبعـــاد الثلاثة: البعد الزمني – البعد المكاني – البعد الصوتي.

(١) فصول في الشعر ونقده ط٣ دار المعارف صـ٩٢
(٢) دار الكتب الحديثة صـ٣٦٥ ج٢.

تحدث كثير من النقاد عن "المواكب" كلُ تنبع رؤيته التي تحدد نظرته ولا شك أن اختلاف الرؤى ثراء واتساع كما أن وحداويتها فقر وتضييق وقد رأى د/كاظم حطيط في كتابه " أعلام ورواد في الأدب العربي [٢] أن المواكب حوار شعري بين شيخ وشاب ، ألأول يأتي من المدينة ، ويتحدث عن الواقع والممارسة ، والآخر يسترسل منشداً خواطره عن العدل والحرية والحب والظلم والفرح وسوى ذلك ؛ مما يشغل عقول الناس وتطلعاتهم المختلفة .

وعن شغف جبران بالمعاني وتعدد الأصوات في المقطعين ، يمكن أن يجد القارئ نفسه إزاء تعدد الأصوات الفاعلة في تنامي المعاني التي قصد الشاعر جبران إبلاغها للمتلقي ، ففي المقطع الأول يحيلنا على طبيعة القيم في الواقع ، وكيف يصدر الناس فيها عن تناقضات ومفارقات ، مثل الخير الذي لا يأتونه إلا على سبيل الصنعة تحت الإجبار، في مقابل الشر الذي يأتونه على الدوام فهو جبلة فيهم لا يكلفهم رهقاً ، فيستمر أثره حياً حتى ولو قبر أصحابه ، ويبدو جليا أن تتبع الشاعر لأحوال الناس في ذلك الواقع ، إنما

ينطلق من نقد صريح لمخالفتهم ما يجب أن يكون عليه الحال، ماداموا قد فقدوا إرادة الاختيار والقدرة على التمييز بين حقيقة الخير والشر ، وصاروا كآلات تحركها أصابع الدهر، أو كالقطيع المنقاد خوفا من الاندثار .

ويحيل المقطع الثاني ، على قراءة الشاعر لحركة الوجود في الغابات، حيث لا راع ولا قطيع ، ولا تدافع بين الفصول فالشتاء يمشي ولكن لا يجاريه الربيع ، كما يحيل على موقف الشاعر ألانتقادي من ذلك التناقض ، باعتباره واقعاً أسهم الناس أنفسهم في خلقه ، حين قبلوا أن يكونوا عبيداً للذي يأبى الخضوع والانقياد .

أما اللازمة الأخيرة من بيتين ، فإنها ستنفصل عن الحالة الذهنية الواعية بما يجري في الواقع والطبيعة، لتعلن عن الدعوة إلى الغناء خارج ذلك النسق المرفوض من طرف الشاعر ، وبذلك تكون رؤيا الشاعر هنا إيجابية إلى حد ما فهو لم يخضع لما خضع له الناس وكان عنصراً فاعلاً في تلك المنظومة بل وقف متفرجاً محاولاً إيجاد بديل يخرج به من تلك الفرضية التي يأباها لكن رفضه قد يوسم بالسلبية حيث إنه ركن إلى الغناء وإلى استحداث حالة نفسية

ومزاجية تجعله محتملاً لذلك الوضع الذي لا يرتضيه . لا رفضاً صريحاً ، وبذل الجهد للتخلص منه وتغييره .

أعطني الناي وغن فالغنا يرعى العقول ..

يبين جبران أهمية الناي فهو متنفس يجلى عن العقول صداها ويمدها بما ينعشها ويجعلها تقبل على الحياة حيث إن أحوال الناس تتبدل وتتغير بين مجد وخمول ، ذل وعز ، إلى أن أنين الناي.هو الباقي الثابت في النفس فيشيع فيها السرور والأريحية، والبهجة والنشوة.

كما أن نجد الكلمات هنا بسيطة متداولة، لكنها حملت طاقات شعورية خلاقة تخلع على المتلقي نفس الحالة المزاجية والشعورية التي تسيطر على الشاعر " فاللغة طاقة ونشاط روحي خلاق ، وهي بديهة وتعبير للروح ، كما أنها ليست عضواً مستقلاً أو عضواً طبيعياً خاضعاً لقوانين ثابتة ، ولا يفرد جوهرها إلزاماً على الفرد "[1]

وقد سار جبران حقاً على نفس النهج الذي رسمه لبناء قصيدته المطولة على امتداد أكثر من مائتي بيت ؛ إذ اختار التنامي الحواري بين تلك الأصوات ، تتجاذبها ثنائية الواقع والطبيعة على

(١) فصول مجلة النقد الأدبي ج ١ ع – يناير ١٩٨١ صـ ٤ .

التقابل ، من خلال حضور ذاتي مشدود إلى القيم التي تنفتح على الكوني الإنساني.

فجبران يتعاطف مع الإنسانية تعاطفًا حميما متخطياً القومية والعروبة إلى التفاعل مع الجنس البشرى في عمومه "هذا التعاطف الإنساني لم يزد على أن يكون إعلاناً عن مشاعر وأحاسيس لا تنشد إلى إطار فكرى محدد يرتبط بالواقع على حد قول د أنس دواد [(1)]

ربما يتأكد ذلك (من خلال متابعة المقطع اللاحق ، حيث يتمثل الواقع في صورة محزنة وساخرة ، بسبب نوعية العدل الزائف الذي يسود فيه ، في مقابل ما تعرفه الطبيعة من غياب في الأصل للعدل ،لعدم حاجتها إليه بين كائناتها ، مادامت لا تعرف تنافساً يمكن أن يؤدي إلى ظلم قد يستوجب العقاب، وينتهي جبران إلى التعليق على الواقع الاجتماعي من بوابة طبيعة العدل فيه ، لا يعدو أن يكون ثلجا ، سرعان ما تكشف الشمس زيفه فتذيبه، لذلك يعود إلى الاختيار والمطالبة بإعطائه الناي ، لأن الغناء عدل القلوب فقد

---

(١) التجديد في شعر المهجر ص ٢٧٥
(٢) مجلة الموقف الأدبي الشهرية التابعة لاتحاد الكتاب العرب عدد ٤٢٠ – نيسان ٢٠٠٦ – إنترنت

اكتفي بالعدل الباطني دون محاولة ظهوره أو تعميمه وجعله قانوناً متحكماً)[٢].

ولا يملك المتابع للمواكب إلا أن يشعر بمغايرة الشاعر لمن سبقوه على مستوى المعاني المطروقة ، بحكم تجاوزها لما هو ذاتي وشخصي ، إلى ما هو إنساني في بعده القيمي ، ضمن الاتجاه الرومانسي الذي شكل مرجعيته الفنية ، من خلال التعلق باستحضار الطبيعة بديلا عن الواقع ، لما تمثله من براءة وبساطة وحرية رضي عنها الشاعر كبديل للواقع .

وقد تجلت هذه العوالم لدى جبران من خلال المعجم والأساليب والصور التي وظفها الشاعر للتعبير عن موقفه ورؤيته للعالم الاجتماعي من جهة والعالم الطبيعي من جهة أخرى ، فالعالم الطبيعي يجد فيه الشاعر ملاذه ووفاءً لاحتياجاته ،التي قد يعجز عن تصورها في دنيا الواقع المأزوم والذي يهرب منه جبران إلى عالم الطبيعة .

أما العالم الاجتماعي فهو يحوى الكثير مما يرفضه ويأباه . فالصورة تتحدد بدقة باللفظ والأسلوب والمعنى والإحساس والشعور الكامل بالحياة ،وهى في الشعر تعتمد على الأسلوب الذي يكنىء

ويومىء ،وترسم بمهارة عن طريق مقاربة المجهول بالمعروف أو الانتقال من عالم النفس إلى عالم الطبيعة ، أو إعادة تشكيله من جديد عن طريق خلق العلاقات الجديدة في اللغة التي تنتج له صور المجاز من الكتابة والتشبيه والاستعارة والرمز "[١]

(١) الصورة الفنية في شعر لبيد رسالة ماجستير صلاح مصيلحى على عبد الله إشراف د النعمان عبد المتعال القاضى كلية الآداب جامعة القاهرة المقدمة .

اللغة في شعر جبران " المواكب "

تشكل اللغة عنصرًا هامًا في تشكيل عالم " المواكب" ولعل اللافت للانتباه على مستوى الاستعمال المعجمي ، ميل جبران إلى اعتماد اللغة البسيطة من صميم المُتَدَاوْل ، دون جنوح إلى الإغراب أو التعقيد ، انسجاما مع الدعوة التي عبر عنها في مواجهة دعاة السلفية الشعرية ، حين واجههم قائلا : لكم لغتكم ولي لغتي " [1] متجها إلى التعبير بمفردات متصلة بنشاطه الذهني وتفكيره في اللحظة المعيشة، دونما حاجة إلى البحث في القاموس القديم ،عما يكون مرادفات للغة التي يسعى إلى التمثيل من خلالها عن حالته النفسية والذهنية، وقد اعتمد طريقاً تعبيرياً مميزاً حتى اشتهر على الألسن بالطريقة الجبرانية ، إذ تتداخل التعبيرات وطرق الأداء بشكل متنوع برأ من الغموض ، خالي من التعقيد يدل على اقتداره في اصطياد الأساليب المختلفة ، وإيجاد علاقة بينها وقد حضرت بقوة مكونات الحقل الدلالي الطبيعي ،

---

(١) الأدب العربي في المهجر د / حسن جاد صـ ٤٠٩ ط ١ القاهرة ١٩٦٩

الغـاب – الشـتاء -الأرض– الزهـر – الغنـاء – الحقـل – الصفصـاف – الشـمس – الـثلج – في ارتبـاط مـع عناصـر مـن الواقـع ، " النـاس – الخـير – الشـر – الـدهر – العـدل – المـوت – المجد – الجسم – الروح ..

مما يـدل علـى تعمـق وتغلغـل البعـد الرومانسـي مـن جهـة ، والبعـد التـأملي الإنساني مـن جهـة أخـرى , ولا يبـدو جـبران في ذلـك مباليـا بمـا يقـع فيـه مـن التكـرار اللفظـي ،فيمـا يمكـن اعتبـاره حجـراً أساسيـاً في الـنص ، مثـل النـاس والغابـات والغنـاء، إذ تحيـل علـى التوزيـع المقطعـي الـذي قصـده ، الواقـع والطبيعـة والـذات وهـى الأعمـدة الثلاثـة الـتي شـيد جـبران مـن خلالها عوالم مواكبه .

(ويلاحـظ القـارئ أيضـا ، اهتمـام جـبران بالجملـة التعبيريـة التواصـلية ، رغـم اشـتغاله بالشـعر كفـن تعـبيري باللغـة ، بحيـث يهـيمن الأسـلوب القريـب مـن النثـر ، وهـذا يرجـع لغـزارة إنتاجـه نثـراً ، لـذا غلبـت عليـه الصـيغ الخبريـة ، كأنـه يتـوخى الإبـلاغ والإقناع أساسا ، ولا تأتي الصيغ الإنشائية القائمة على عدم

احتمال التصديق فيها أو التكذيب ، لأن المطلوب فيها غير حاصل وقت الطلب ، مثل الأمر والنفي ، إلا لتأكيد المعنى المخبر عنه على سبيل التقرير، فيما حقه أن يكون قابلاً لذلك التصديق أو التكذيب)[1]

فنجد أن ما قدمه شاعرنا في قصيدته (المواكب) من لغة وأساليب وتراكيب لغوية.

- تحمل صوراً أو لا تحمل إلا معناها- جاءت متسمة بالوضوح والبساطة مع العمق ودلالة أرحب ، وكأنه يحقق قول نيتشه الفيلسوف الألماني الذي رأي أن " رسالة الكاتب هي الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذي يبعث فيه" وكان الكاتب مثل النبي كلاهما صاحب رسالة يعمل على توصيلها وكما قال "هيكل " معرفاً الأدب بأنه : " من جميل غايته تبليغ الناس رسالة ما في الحياة والوجود حق وجمال بواسطة الكلام والأدب هو الذي يؤدي هذه الرسالة " [2]

---

(١) مقال من الموسوعة العالمية للأدب – إنترنت .
(٢) ثورة الأدب محمد حسين هيكل صـ ٢٦ دار المعارف القاهرة ط ٢ سنه ١٩٨٦ .
(٣) مداس النقد الأدبي الحديث د / محمد عبد المنعم خفاجى صـ ١٥٥ الدار المصرية اللبنانية .

فالرومانسيون يعبرون عن إحساسهم وشعورهم فهم أصحاب رسالة دعت إلى " حرية الفن ولاذت بالشعر المجنح بأشجان العاطفة الممعن في الأحلام والخيالات والرؤى وحب الطبيعة ، والمتسم بالطابع الفني والأصالة المبتدعة والشخصية الملهمة ،والروح الغنائي الأخاذ والإنطواء على النفس " [٣] .

وقد انحنت المواكب على حرية الأسلوب وسلاسته ورقته وعذوبته لذا نجد جبران وقد راح يميل إلى سلاسة الأساليب ، فقد خلت القصيدة من التعقيد اللفظي والمعنوي ، مما ساعد على وصول الفكرة وجزئياتها إلى المتلقى ، فأطلع القارئ على رؤيته واستمتع بأدائه اللغوي والفني الرائع ؛ والذي يجمع بين السهولة والعذوبة البساطة والعمق ، وقد بعدت لغته عن الذاتية أو الشخصية فلم يقدم لنا تجربة ذاتية إنما قدم تجربة عامة تحمل الفلسفة وإذكاء الوجدان وإعمال التأمل الذي يجمع في مشاهداته بين المطالب الجسدية والنفس وهواه والروح والإحساس بالحرية الحقيقية، وهذه النظرة الفنية كانت منتشرة في الغرب وأمريكا في هذا الوقت ، من ثورة فكرية ومعتقدية وفنية أيضاً ، والدعوة إلى حياة أكثر صفاءً وهدوءً ، فقد خلفت الحروب لديهم الآلام والصراعات والأحقاد ،

ونـادي أصحاب هـذا الاتجـاه التحـرري الـتخلص مـن قيـود الماضـي والـدعوة إلى الرومانسـية ، والفـن هـو الخـلاص مـن هـذه القسوة التي خلفتها لهم الحروب ، والدعوة إلى التعانق مع الطبيعة واللجـوء إليهـا كمهرب جميـل لا قيـد فيـه ، وكانـت الحركـة الأدبيـة مواكبة للحركة السياسية والاقتصادية . فالوطن العربـي سقط معظمـه مستعمراً ردحًا من الزمن، وحـال العبـاد فيـه تكـاد تكـون متماثلـة في الضيق والتبرم وشظف العيش.

كمـا أن اللغـة شـديدة الخصوصـية عنـد جـبران ، ولـه قاموسـه الخاص وإذا كان الرصافي قد قال :

أجود الشعر ما يكسوه قائله

بوشي ذا العصر لا الخالي من العصر[١]

فـإن جـبران يقـول : (لكـم لغـتكم ، ولـي لغـتي : لكـم منهـا القواميس ، والمعجمات ، والمطـولات ، ولـي منها ما غربلته الأذن ، وحفظتـه الـذاكرة مـن كـلام مـأنوس ، وتداولـه ألسـنة النـاس في أفراحهم وأحزانهم ....

(١) ديوان معروف الرصافي جـ ١ ص د مطبعة الاستقامة القاهرة .

لكم من لغتكم البديع ، والبيان ، والمنطق ، ولي في لغتي نظرة في عين المغلوب ، ودمعة في جفن المشتاق وابتسامة على ثغر المؤمن لكم منها القلائد الفضية ، ولي منها قطر الندي ورجع الصدى ، وتلاعب النسيم بأوراق الحور والصفصاف ، لكم منها الترصيع والتنميق وكل ما وراء هذه البلهوانيات من التلفيق :(٢).

هذه هي لغة الشعر عند جبران بمفهومها الحضاري الذي يحقق من خلالها التواصل والتناغم مع الآخر ، وإقامة علاقة جمالية ومعرفية مع ثقافته وحضارته ومع إحساسه ووجدانه ، فلم يعتمد على ما يعتمد عليه الشعراء في الوطن العربي من زخرف القول وقوة فصاحته .

فاللغة لديه أداة للتواصل والتخاطب وتهذيب الوجدان، وكأنه استشرف الغيب ، وعرف أنه سيأتي زمن ينادى فيه بالبساطة والحديث بلغة العصر لا لغات العصور الخوالي وكما قيل فنحن (في حاجة إلى زعماء يعرفون كيف يحدثون يقظة في نفوس الجمهور ، ويتركون فيها من الاقتناع أثراً بيناً. فالزعماء إذا لم يكونوا أدباء في بيانهم وبليغ خطابهم لا يمكنهم أن ينقذوا أممهم من حيرتها ولا أن

(٢) الأدب العربي في المهجر د / حسن جاد صـ ٢٠٩ ط ١ القاهرة ١٩٦٩

يستوقدوا نار الحمية في نفوس ناشئتها ، إذ لم يعد الأدب اليوم كما كان قديماً أدباً فياضاً بالصنعة براقاً بتزيين البديع مما لا يعجب إلا قائله ولا يطرب إلا صاحبه وإنما الأدب أصبح عاملاً من عوامل تكوين الأمم وإبلاغها رشدها وإنالتها استقلالها) .

ونظرا لأن جبران كان عفويًا وبسيطًا في استخداماته اللغوية ، فسرعان ما ضمن البقاء والخلود لفنه بل الانتشار والذيوع وكأنه هو المعني بقول الشاعر: (١)

وأرسلته عـفواً فـكان كما تـرى

قـوافي تجـتاب البـلاد سـراع

ففـي نسـقه التعـبيري حـاول الشـاعر أن " يحيـا نـبض عصـره، في تجربتـه الشـعرية و اتجـه في صـوره الشـعرية إلى إلغـاء مـا يمكـن أن يسـمى بـالمعجم الشـعري ، والـذي كـان يضـم المفـردات الشـعرية الـتي حرصـت عليهـا القصـيدة العربيـة التقليديـة والرومانسـية " فلـم يعـد أمـام هـذا الشـاعر الجديـد مـا يمكـن أن يسـمى باللفظـة الشـعرية ، وإنمـا أصـبحت كـل لفظـة قادرة في مكانها على التعبير " وقد استطاع جبران تطويع

(١) ديوان معروف الرصافي المقدمة ً د

اللغـة العربيـة ، وتهـذيبها وحسـن صـياغتها وتحويـل عباراتهـا النثريـة إلى قصـائد ؛ تحمـل رنـين الشـعر وإن لم تحمـل أوزانـه ، ولونـه بمـا حملتـه مـن ألـق العواطـف وهمـس النبضـات ، وتكثيـف الدلالة الإيحائية .

وقـد شـارك جـبران " كتـاب المهجـر علـى تحريـر اللغـة مـن قيـود الشـكلية وتجديـد الأسـاليب اللغويـة دون الخـروج علـى قواعد اللغة ، وتبنى فنون أدبية حديثة .

إن لغـة جـبران الشـعرية فريـدة خاصـة بـه ثـم المعـني والمحتـوى الشـعري لقصـيدة المواكـب وقـد فـرض تلـك اللغـة ابتداء من وقوعه على عنوانه:

(المواكـب) في اتجـاه وضـع فرضـية للقـراءة تحيلنـا صـيغة الجمـع علـى المفـرد (الموكـب)، ومـا يـوحي بـه مـن دلالات تـرتبط في شموليتهـا بـالفرح والاحتفـاء ، علـى الاتفـاق بـين الجماعـة حـول حـدث لـه طقـوس التواصـل بـين أفرادهـا ، وكمـا يكـون الموكـب رفقـة حـول هـودج عـرس علـى سـنم راحلـة ، يكـون أيضـا صـحبة لحضـرة الحـاكم علـى صـهوة جـواد ، وفي الحالتين يكون جمع الموكب تابعاً فيما يشبه فقدان القدرة

على مخالفة التوجه الذي يكون فيه أو عليه أصل الاجتماع في الموكب ومنه وكب و واكب في الفعل، من قبيل نزل والموكب على وزن مفعل برغم صيغة المكانية ، علما بأن الأصل في المكان الثبات، فإنه يتضمن الحركة ، لأنه بغيرها لا يكون موكبا وفق ما تم حوله الاصطلاح ، على عكس المنزل مثلا وقد يوحي الجمع في العنوان بالتعدد أو التنوع بين تلك المواكب ، والتي يمكن أن تتفاوت في حجم مكانتها ، ودرجة حركتها سواء اختلفت في الزمان أو اتفقت في اللحظة ،لأن المواكب على الاختلاف تقتضي وجود علل مختلفة هي أصل مناسبة الاجتماع كأمكنة متحركة، بينما المواكب على الاتفاق ،تنحصر في ذلك الاجتماع حول محور هو أصل الانقياد بتوجيه... لذلك يقال أيضا : مواكب السفن ، حين يتم تجميع مجموعات المراكب المتحركة في عرض البحر لتأخذ مسارا معينا لها سلفا .

وتقودنا تلك الملاحظة إلى تصور ما يمكن أن يتناوله الشاعر أو يعرض له ،انطلاقا من إيحاءات دلالة اللفظة،كأن يتطرق الشاعر إلى ما تم السكوت عنه بالحذف تقديما أو

تـأخيرا، إمـا بالصـفة فيمـا يمكـن أن يكـون نعتـا مـن قبيـل : المواكـب الحزينـة وإمـا بالفعـل الـذي يحـدد نـوع الحركـة وزمانهـا، كـأن نقـول : ضـاعت المواكـب المتعبـة .والشـعر زينـة الفنـون وقـد احتـل هـذه المكانـة لأداتـه المميـزة آلا وهـى اللغـة.... وقـد اسـتطاع مـن خـلال التراكيـب اللغويـة المتواليـة بشـكل مخصـوص أن يرتفـع بفـيض اللغـة الإيحـائي فـارتفع بهـا عـن التعبير الحـرفي إلى التعبير الفـني غـير المباشـر الـذي يفجـر طاقاتها في التعبير فنسمع الهمس :

أعطني الناي وغن فالغنا جسم يسيل

وقـد صـاغ المعـاني الـتي سـعى إلى التعبير عنهـا، بلغـة اختـار تشـكيلها مـن دفقـة انفعالاتـه ، فكانـت مفـردات الجملـة التصـويرية نابعـة مـن الحاجـة إليهـا وفـق مـا يسـتلزمه المقـام ، دون محاولـة للإغـراق في البحـث عـن الكلمـات ، لمجـرد أن لهـا جرسـاً مـن الماضـي أو وقعـاً مـن القـديم ، ولم يعبـه أن مـال إلى البسـاطة والسهولة والمتداول في الحياة التي يتفاعل معها ، بل لم

يـنقص مـن قيمـة نثـره الفـني قبـل شـعره ،أنـه لم يكتـب سوى العبارة التي تصدر عن وجدانه.

ووعيـه ، رغبـة في المكاشـفة المطلوبـة بـين المبـدع والمتلقي،وتحقيقـاً للتواصـل عـبر الأداء اللغـوي الهـادف معنـى ومبنى .

لعلـه في اختيـاره ذاك يبـدو منسـجماً مـع موقفـه مـن اللغـة وطبيعـة نظرتـه إليهـا ، إذ لم يكـن لـه مـا يـبرر الاستمرار في التعلـق بتلـك اللغـة ذات البعـد القداسـي ، كمـا تشـكل في الـوعي العربـي الإسـلامي انطلاقـا مـن مفهـوم الوقـف دون الاصـطلاح ، ألم يكـن جـبران خليـل جـبران بـالرغم مـن عروبتـه القوميـة مسيحي الاعتقاد!!؟

وعلـى الـرغم مـن مخالفتـه للنظـام السـائد في عصـره مـن سـيطرة التيـار التقليـدي للبعـث والأحيـاء بمـا يمثلـه مـن نظـام خـاص في الأداء ، كمـا مثلـه البـارودي وشـوقي ، إلا أنـه نجـح في فـرض أسـلوبه التصـويري علـى القـارئ العربـي ، و أبـدع باللغـة العربيـة علـى طريقـته، في رسـم لوحـات لغويـة لخـواطره وقصصه، يستوي في ذلك نثره وشعره – على قلته – لم يترك

جبران غير ديوان وحيد بعنوان "المواكب" و هو عبارة عن قصيدة مطولة ظهرت عام ١٩١٨، غير أن تميز جبران ضمن كوكبة الرومانسيين، إنما يعود لتأملاته في الحياة والكون ، والتي تجاوزت مواقف التفاعل مع الطبيعة من خلال أنسنتها ، وإسقاط الذات عليها . فلم يقف عند العاطفة أو الإحساس الشخصي الفردي، فيما له صلة باليوم المعيش في الحياة الخاصة أو العامة ،بقدر ما وقف عند الهم الوجودي والهواجس الإنسانية في بعدها ألقيمي الكوني في المطلق ، وإحساسه بسعة ذاته حتى تستوعب الكون كله ، يدل على هذا مقاطع القصيدة في عمومها ، ومفرداتها اللغوية حيث : الخير –الشر – الناس – الحياة الحق – الحزن – الأحلام – الطبيعة – الدين العيش – السعادة – الحب الرجاء – الدهر – الصراع – الحرية الموت – الجسم – الروح – الخلق – الغناء – العدل .

التجديد في شكل القصيدة

أخـذت المواكـب شـهرة واسـعة واحتلـت مكانـة مميـزة إذ تفـيض بنغمـات هامسـة ، حيـث لا توجـد الصـيحات الصـاخبة المتمـردة أو النغمـة الخطابيـة المجلجلـة ، والحقيقـة أن جـبران كـان مجـدداً علـى الأنمـاط الموروثـة مـن الشـعر القـديم ، لـذا تنصـل مـن النظـام العروضـي وقافيتـه ، فقـدم لنـا قصـيدة ذات شـكل مقطعـي مـتغير القافيـة ليبعـث في الإيقـاع التنـوع ليتـيح للشـعر أن ينطلـق بـلا قيـد يؤرقـه في تعـبيره أو تجسـيد فكرتـه ومعاناتـه الـتي يريـد البـوح بهـا وسـار علـى هـذا الـنهج كـل شـعراء المهجـر وكـانوا يهـدفون مـن ذلـك النهـوض بـالأدب ليكـون صـورة للحيـاة ، ولهـذا خرجـوا عـن قواعـد اللغـة وهـاموا بـالكلام عـن الـنفس بـدون رطانـة أسـلوبية ، والبعـد عـن التكلـف وإظهـار الإبـداع في كـل صـوره ومناحيـه ، وقـد تخلـص شـعراء المهجـر مـن الجمـود والتقليـد الـذي ران علـى الشـعر العربـي في كـل العصـور ، ولعـل حركـة الشـعر الحـديث ، المنشـور في الكتـب وفي كـل الصـحف والمجـلات كـان انعكاسـاً لمـا قالـه شـعراء المهجر من أشعار وما نادوا به من تحديث وابتكار ، مما يعد

ثـورة علـى الجمـود الـذي كـان للشـعر العربـي عنـد شـوقي وحـافظ والبـارودي وغيرهـم مـن الشـعراء ، لقـد أبـدع كـل شـعراء المهجـر في إحـداث تجـارب شـعرية تأخـذ بلـب القـارئ مـن خـلال الكـون والحيـاة وصـوروا مـا يعـن لهـم مـن أفكـار .. كانـت النمـوذج الأمثـل لمـا قيـل مـن أشـعار) [1] وبـذلك كلـه اسـتطاع جـبران أن يكتـب لمواكبـه الخلـود والبقـاء في دنيـا الكلمـة الساحرة ، مـن خـلال قبضـه علـى ملامحـه الخاصـة واطلاعنـا علـى صـورته هـو لا الالتحـاف في أرديـة الآخـرين . أو الـدوران في فلكهـم وظـل هـو في منطقـة تحـرره الـذاتي والتحـرر المطلـق في مواجهـة الـذات والفـن واللـون مـن خـلال هـذه الحركـة الشـعرية (مدرسـة المهجـر) ومـا تمتلكـه مـن سمـات وملامـح لهـا تربتهـا المحدودة .

(١) النص الأدبي في العصر الحديث بين الحداثة والتقليد د . عبد الرحمن عبد الحميد على صـ ١٠٢ دار الكتاب الحديث ٢٠٠٥ .

الحوار في القصيدة

من الثابت أن جبران كشاعر قدم لنا نموذجاً شعرياً متقدماً ثائراً حراً في لغته غير مقيد بالتقاليد اللغوية القديمة ، فجاء خطابه الشعري متناسقاً فعالاً ذا إيقاع وحركة ينبض بالحياة والتماسك في(اللغة والموسيقي ، الخيال – العاطفة والأفكار –) و هي مفردات التجربة الشعرية التي تتكون منها القصيدة ، واللغة تعانقت مع موسيقاها بغير تكلف ولا صنعة تعوق مسارها إلى الحواس السمعية ، والخيال جاء معبراً عن عاطفته الجياشة التي تحلم بالمثالية والعالم الأفضل من خلال الأفكار التي طرحها الشاعر في كل مقطوعة شعرية في القصيدة بحيث شكل بهذه الأدوات الفنية صورة متوهجة واضحة المعالم ، شديدة الأثر في المتلقي من خلال فلسفة الوجدان وفقد الحياة ، وقد شارك جبران خليل جبران كتاب المهجر في العمل على تحرير اللغة من قيود الشكلية وتجديد الأساليب اللغوية دون الخروج عن قواعد اللغة ، وتبني فنوناً أدبية حديثة ؛ كالشعر المنثور ولهذا جاءت قصيدة المواكب ذات أنساق متماسكة ومتناسقة بالغة الإيحاء فأضفي عليها

الجمـال في الأداء ، والإحسـاس المشـع منهـا فكـل عمـل فـني وحـدة كاملـة - فوسـم قصـائد جـبران بسـمات وخصـائص متفـردة زادتهـا ثـراء وجمـالاً ، وهـذا يتوافـق مـع وجهـة نظـر جـبران في البعـد عـن الأغـراض الشـعرية الموروثـة ، واللجـوء إلى الأسـاليب التعبيريـة الأكثـر التصـاقاً بـالنفس ومتطلباتهـا وقـد قـال (لكـم مـن أغـراض الشـعر الرثـاء والمـدائح الفخـر والتهنئـة ، ولـي منهـا مـا تكـبر عـن رثـاء مـن مـات وهـو في الـرحم ، ويـأبى مـديح مـن يسـتوجب الاسـتهزاء ويـأنف مـن تهنئـة مـن يسـتدعي الشفقة) [1].

الحـوار الـذي أجـراه جـبران مـع نفسـه بعـد أن خلـع علـى نفسـه صـفات المـتلقين المنصـتين ، فكـأنهم يتـأملون معـه الأحـوال ويتبـادلون معـه الـرؤى ووجهـات النظـر ، وقـد وفـق باختياره للبناء الحواري .

(ولعـل اختيـار جـبران للبنـاء الحـواري اعتمـاداً علـى تعـدد الأصـوات المشـار إليهـا سـلفا ، متناسـب مـع رغبتـه في إضفاء الحياة على الرسالة المستهدفة ، تجاوزا لرتابة الإلقاء

(١) التيارات المعاصرة في النقد الأدبي د/بدوى طبانه صـ ١٣٩ مطبعة الأنجلوا المصرية

المـألوف في القصـيدة ذات الصـوت الأحـادي ، بحيـث لا يحضـر الهـم الشخصـي المفـرد ، مـن خـلال ذلـك الحضـور الـذاتي المتـداول في الشـعر العربـي عامـة ، بـل يفسـح المجـال لتـدخل الصـراع كقـوة تحـرك الوجـود وتكشـف عـن المزيـف في الواقـع ، حـين يبتعـد الإنسـان عـن القـيم الكونيـة ذات البعـد الإنساني ، فيظهـر الشاعر على امتـداد الـنص ، مـن خـلال أفعـال تصـب في ذلـك الاتجـاه : يحكـي - يصـف - يصـور ينفـي - يرغب)[1].

ويمكن للقارئ أن يقرأ القصيدة مرة أخرى ، ليجد نفسه أمام احتمالات الفهـم المتجـدد مع التأمل والمراجعة ، لأن المحاولة الأولى إنمـا تقربـه مـن الـنص في ضـوء الانطباعـات الـتي تتركهـا المعاني في النفس ، أو توحي بها تعاملات الشاعر مع اللغة والصور، غير أن ما يبقى قاسماً مشتركاً بين تعدد القراءات وتنوع مستوياتها ، هو تميز جبران الشاعر ، بين كوكبة المجددين ضمن مسار تطـور الشعر العربي المعاصر ، سواء على مستوى المضمون المطروق، أو على مستوى التعبير الفني لغة وإيقاعا وتصويرا .

(١) النص الأدبي في العصر الحديث بين الحداث والتقليد صـ ١٠٣ .

فالعمل الفني يجب أن يكون مكتمل العناصر ، محدد السمات في وحده بيئية وقد تحوى هذه الوحدة فروقاً بين عناصرها لكنها ككل متكامل تشكل بنية العمل الفني فلو أضفنا إليه شيئاً أو حذفنا منه جزءاً تكون النتيجة إما انهيار العمل كلية، أو خلق عمل جديد ... والمواكب تعكس تلك النظرة الأدبية فهناك تماسك في وحدتها العضوية من خلال النظام والروعة في الأداء الشعري ، وهي إن كانت سيئة على المقاطع إلا أن كل مقطع وظفت فيه الألفاظ والخيال والصور الموحية توظيفاً متناسقاً بلا زيادة أو نقص فصار كل مقطع – يحمل في طياته ومعانيه فكرة موحية ؛ وهي إن كانت توحي بالاستقلال والاكتمال في ذاتها إلا أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعمل الكلي من خلال روابط حقيقية لا ترى "[1]:

العاطفة الشعورية :

تمثل العاطفة الشعورية حالة الشعور المسيطر على المهجريين وهو شعور ليس مزدوج ، بل متعدد الاتجاهات فهناك حنين للوطن الأم ، وهناك سعادة بالمستوطن الجديد وتبعاته من حرية وسعة في

---

(١) مجلة الموقف الأدبي الشهرية التابعة لاتحاد الكتاب العرب عدد ٤٢٠ – نسيان ٢٠٠٦ .

الرزق،هناك افتقاد للطبيعة ورحابتها وبهائها ، وضيق وتبرم من المدنية الجامدة ، والجمال الصناعي المزيف وحينما نظم جبران قصيدته كان صادقاً في حسه.

لذا جاءت صياغته تنضح بالصدق و "يشع من حروفها حدة التأثر حزناً وفرحاً وإيماناً واقتناعاً بما يقول وما يبث من أفكار . والصدق شرط حيوي في التجربة الشعرية وقد اشترطه طه حسين إذا ما رنا المبدع للتخلص من ربقة الوزن والقافية يقول طه حسين : ليس على شبابنا من الشعراء بأس فيما أرى من أن يتحرر من قيود الوزن والقافية إذا نافرت أمزجتهم وطبائعهم ، لا يطلب إليهم في هذه الحرية إلا أن يكونوا صادقين غير متكلفين وصادر من أنفسهم غير مقلدين " ويطالب طه حسين الأديب بالإبداع والنجاة من سخف القول وتافهه"

وكأن جبران وعى التوجيه فانطلق معبراً عن ذاته وشعوره غير متقيد بوزن أو قافية -لحد ما – متقيداً بالصدق الشعوري حريص عليه فكل ما يحسه المرء يجب أن يعبر عنه بالطريقة التي تتفق وأحاسيسه ومشاعره ، فروائع الشعر العالمي لم تتقيد بوزن أو قافية[1]

(١) الأدب العربي في المهجر د / حسن جاد صـ ٤٠٩ ط ١ القاهرة ١٩٦٩

والعاطفة تسيطر على الشعر المهجري لذا نجد قصائده – غالبا ً–ما تتمتع بالوحدة العضوية لخضوع الشاعر وقت النظم للحظة شعورية حادة .. ولقد حاولت أن أعنون المواكب بعنوان أخر لا يتفلت منه بيت فوجدت أنه قد يناسبها.

" الطفولة المشيبة " فالطفولة وما تقتضيه من براءة منطلقة ، والشيب وحقه من وقار يستجلبه الخبرات المتراكمة... فجبران امتص رحيق الحياة وخرج لنا بحكم صاغها تارة على لسان الشيخ وأخرى على لسان الشاب . وهو هنا لا يكتفي بحسه الفردى بل يدعو أن يشاركه الجمع " الإنسان " في التأثير بما يبثه ويحكيه " إن غاية ما يسعى الأديب إلى تحقيقه التأثير والإقناع بالفكرة أو بصدق الإحساس ، حتى تكون مشاركة الناس له بعد اقتناع وتأثرهم مظهراً من مظاهر تقديره وعلامة من علامات الإعجاب به وبفنه الأدبي)

وحين يعمد الشاعر إلى بث عاطفته ليجذب تجاوب المتلقين ويستخدم كل وسائل الأداء فقد يلجأ إلى " صور التشبيه وصور الاستعارة والتكرار ليزيد معانيهم كشفاً ووضوحاً ويقوون هذا الكشف بما يلجئون إليه من ضروب المبالغات التي تساعدهم تلك الصور على تحقيقها وقد كان لجبران في مواكبه براعة تصويرية خلاقة،

وقدم منها ألوانًا عجابًا في مختلف صور الحياة ونوازع النفس البشرية والفكر الإنساني.

التصوير الفني .

عند جبران هو عماد فنه وأدبه وهو في "مواكبه" تتشظى فكرة رؤية العالم أو الرؤية الكونية إذ إن " رؤية العالم تمر عبر إمعان النظر في الكون والحياة ثم تصوير ذلك عبر خصوصية المبدع "[1] وقد أبدع جبران في تصويره الفني ، فالرؤيا لديه مزدوجة ظاهرة وباطنة ، فصار الوصف استناداً على هذا على مستويين : حسي ومعنوي ، فاستخدم أدواته الدلالية والبلاغية في إطار لغوي بسيط يتفق مع مبدئه الذي أقره سلفاً – لكم لغتكم ولي لغتي – ومنهجه الذي اعتنقه في التعبير من اللجوء إلى الطريق الأيسر لتأدية المعني المطلوب دون التراجع للخلف ، والبحث عن كلمات ثقيلة مثقلة بمرور الزمان عليها . فتكون متثاقلة عند مرورها في الأذن.

(١) تأويل الخطاب الشعري النظرية والتطبيق محمد احمد العزب نموذجاً إبراهيم أمين الزرزمونى مكتبة الآداب ص٣١

كما شاعت في قصيدته ألوان بلاغية مطروقة من قبيل التشبيه والمجاز والاستعارة والطباق والمقابلة ، دون اللجوء إلى الإغراق في الصنعة البيانية أو البديعية كهدف فني ، فينسجم الشاعر بذلك مع اختياره اللغوي الذاهب إلى التعامل مع ما يحقق الإبلاغ والإمتاع .

ويمكننا المرور لماماً على بعض نماذجها ، عند المجاز بياناً والطباق بديعاً ، باعتبارهما ظاهرتين مهيمنتين على النص، بحيث يمكن ربط المجاز بخلعه على الطبيعة صفة الإنسان في إطار التوجه الرومانسي ، حين يلجأ الشاعر إلى خلق الحياة فيها انطلاقا من ذاته فيما يشبه الإسقاط " الناس آلات – أصابع الدهر الشتا يمشي – الغنا يرعى – العدل يبكي ويستضحك : إن عدلَ الناسِ ثلجُ..... إنْ رأتهُ الشمس ذاب .

بينما يمكن ربط الطباق في التعبير ، بالرؤية الوجودية للعالم، من خلال ثنائياته الضدية الخير – الشر – مجيد – ذليل – يبقى – تفنى– يبكي – يستضحك صغروا – كبروا – الجسم – الروح " وقد استخدم جبران تلك الألفاظ بشكل متنوع ليثرى القصيدة وإدراكاً منه لأهمية الصورة

" في عملية ألإبداع الفني ويتبدى ذلك في رد خاصية الشعر النوعية إلى الصورة والخيال ، وفي إنها وسيلة التعبير عن التجربة وهى تعطى هذا التعبير الزينة والزركشة التي تساعد على تفهمها [١]

والحق لقد جاءت الصور التي أبدع جبران في رسمها ، غير منفصلة عن رؤيته الرومانسية و الفلسفية بل متوافقة مع رؤاه ومعتقداته على الصعيدين اللغوي والمنهج الشعري تجديداً. مما ساعد على توضيح رسالته المبتغاة والصورة الشعرية التي التزمها جبران متميزة....

إذ يدور حول الفكرة بتقريرية ومباشرة لا فتة مازجاً فيها بين التراث المتواري في الذاكرة قديما والرؤية المعاصرة للفكرة نفسها إذ تناول الشاعر العربي القديم .... فكرة السكر وحدة تأثير الشرب:

فإذا انتشيت فإنني رب الخورنق والسدير
وإذ صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

واستخدم جبران نفس الفكرة إذ إن الخمر تصيب شاربها بالتهيؤات:

فالناس إن شربوا سُرُّوا كأنهم
رهن الهوى وعلى التخدير قد فطروا

(١) الصورة الفنية في شعر لبيد المقدمة ج

فركن إلى تعبير جديد يوضح ما يتطلع إليه الشاعر :

ليس في الغابات   من مدام أو خيال

وفي تهويمات رومانسية بيِّنة شخصن الطبيعة وتساءل عن أهميتها وأثرها

فالهوى ماء تهادى   والندى ماء ركد

والشذا زهر تمادى   والثرى زهر جمد

كما أن الطبيعة كان لها الأثر الفعال والوجود المزاحم ، وهذا شأن الطبيعة عند الرومانسيين إذ " يربطوا بين مشهد من مشاهدها وبعض ما يدور في نفوسهم من شجن أو سرور[1]

" الأبعاد الثلاثة متحققة البعد الزمني – البعد المكاني – البعد الصوتي " وهذه الأبعاد هي خلاصة التجربة الداخلية التي تدور حول محور الذات الحالمة حين تلجأ إلى الهروب من قسوة واقع خارجي يصبح احتماله – بالنسبة للحالمين – أكثر من أن يطاق " [2]

ففي نطاق البعد الزمني إذ يفر من واقعه المرير وفحيحه مستعيناً بذاته التواقة إلى السعادة ،ونايه آلته لتخطى هذا الهجير

---

(١) الصورة الفنية في شعر لبيد المقدمة ج

(٢) في الرومانسية والواقعية د سيد حامد النساج صـ٢١

ليتفيأ مستظلاً مستروحاً بالغابة تمده نفسه بمدد لا ينقطع ، ومحيطه المجتمعي يفرض عليه بعداً مكانياً فيتخطاه إلى أفق أرحب في الغاب ، والبعد الصوتي يفر من صخب الحياة العبق باليأس الناضح بالقتامة متطلع إلى أمل جديد.

" فهو يريد إثبات وحدة الوجود وتغير المختلف ليصير متوافقاً ولكن التغيير بعيداً عن إنتهاج سبيل العنف بل بالغناء على النادى "جاعلاً هذا الغناء خاتمة لكل نشيد من أناشيد قصيدته .. ودائماً تفيض أشعاره بالحيرة والشجى والألم والتأمل في الطبيعة في لوعة وأنين ".

يقول جبران له لغته الخاصة وعوالمها المحلقة يقول موضحًا ذلك كله معلقاً على اختياره للغة تخصه هو فقط " لي من اللغة ما تقوله الأم لطفلها والمتعبد لسكينة ليله لكم لغتكم عجوزاً معقدة ولي لغتي صبية غراقه في بحر من أحلام سبابها .. إن ما تحسبونه بياناً ليس بأكثر من عقم وزركشة "(١) فهو هنا يرنوا إلى التجديد وجعل لغته جزء من ذاته ومن حياته المعاشه أخذ ذلك من خلال ما يلحظه في الواقع ، أو من خلال ما يتطلع إليه في الطبيعة ، فكانت عناصرها وصياغتها الفنية ، محملة بالدلالات التي استهدفها الشاعر

---

(١) التيارات المعاصرة في النقد الأدبي د/بدوى طبانه صـ ١٣٩ مطبعة الأنجلو المصرية

مـن تعـبيرات لغويـة ، مفـردات وأسـاليب ، ممـا يـدل علـى أن التوظيف الفني للصورة الشعرية ، إنما يخدم المعنى المراد مشاركة القارئ فيه، إبلاغا بالمضمون وإمتاعا بالشكل فجبران يعي تماماً تفرده وأسبقيته للشعراء في اختيار قاموس لغوي خاص به يؤدى المعني بلا إفراط أو تفريط فهو حريص على أن تؤدي أداته الشعرية الدلالة المبتغاة منها .

(ذلك لأن ارتباط الأداة الشعرية بنظام متميز من الدلالة لا يجعل من الوزن الشعري مجرد محاكاة لفن الموسيقي ، بل يجعل موسيقى الشعر نابعة من طبيعة أداته الخاصة من حيث الإمكانات الصوتية لهذه الأداة إذا ألفت في علاقات ، ومن حيث دلالة هذه العلاقات الصوتية على غرض من الأغراض أو معني من المعاني)[1]

و القصيدة بناء فن متوال يتبدى فيه التدفق والانسياب إذ تأتى الفكرة تلو الأخرى فالإيقاع البنائي يعلوه " انسياب مترفق ، لا تقطعه المفاجأة المربكة ، ولا الصياغات الحادة ذات النبرة العالية المجلجلة وعلى عناصر البناء : الصوت واللفظة والصورة انتقاء وحدتها ، نسج تكويناتها، وعلاقاتها من مصادر تتسم بالنبرة الهادئة

---

(١) مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي د / جابر عصفور الهيئة المصرية العامة للكتاب – سلسلة دراسات أدبية صـ ٣٠٢ .

في الإنفراد والصياغة حتى ليتسنى لجزئيات الإيقاع الموسيقى في صدر البيت وعجزه وفي القصيدة كاملة ، الخلوص إلى بنية متلاحمة متسمة بإيقاع بنائي هادئ منساب "[1] إذ على ما تحويه القصيدة من توليدات فنية إلا أنها توالت في انسيابية وطلاقة بلا عنت أصاب المؤلف لإيرادها ، أو إرهاق لحق المتلقي لاستيعابها، وربما مرد ذلك لاطلاعه الآداب الغربية واحتكاكه بالنظم، وطرائقه الجديدة على الأدب العربي ، إذ استطاعوا أن يأخذوا بناصية الشعر ليصبغوا من نسيجه ألواناً مختلفة بأشكال متنوعة من الرسومات " ولا ينكر تأثير الأدب المهجري في أدب البلاد العربية فقد كان أول من تحرر تحرراً ملموساً من غلبة الموضوعات التقليدية كالمديح والفخر ،كما تجنب الكثير من شعر المناسبات وتحرر من النزعة الخطابية الغالبة على الشعر العربي ، فاستطاع أن يغزو القلوب في البلاد العربية ويجد له أنصار ومؤيدين".

والصورة الفنية في المواكب ذات طاقات كبيرة من الإيحاء جبران. يستخدم الصورة للتعبير عما جاش بخاطره ؛ إذ حط يده على الصراع الأزلي المجسم للتناقض بين قوى اليأس وآملين

(١) في دواوين شعر المهجر الجنوبي رسالة دكتوراه محمد عبد العزيز إشراف د سهير القلماوى د جابر عصفور ١٩٩٥ صـ ١٠٤

الأمـل، فصـور هـذا بأبعـاده الـثلاث البعـد ألزمـاني ،والبعـد المكاني، والبعد التي.

فلجأ إلى التصوير ليمنح تجربته " النسق والنظام اللـذين تفتقر إليهما في مراحلها الأولى الشعر العربي "[(١)]

وجـبران كـان وفيـاً للـنهج الرومانسـي شـأنه شـأن الرومانسـيين الذين يرون أن الحل للخلاص مما لا يرغبون هو الفرار إلى الأماكن البعيدة ، ثم يقصون الدوافع والطرق لذلك " وهم يقصون ذلك من خـلال تجارب ذاتيـة تعرضـوا إليهـا هـم بـذواتهم ، ونـراهم يصـبغون تجـربتهم الذاتيـة بصـبغة الشـاكي الأسـيان المتوقـد المشـاعر ، الـذي يتجـه بأسـلوبه إلى القلـب أولاً وقبـل كـل شـيء ولـيس إلى العقـل بطبيعة الحال " .

ونجـد الصـور متلاحقـة تكـتظ بهـا المواكـب إذ اعتمـد عليهـا لتوضـيح فكرتـه إذ بالصـورة تتبـدى قـدرة الشـاعر علـى التشـكيل إذ يصـوغ تجربتـه " في نسـق يحقـق المتعـة والخـبرة ، ويستكشـف بهـا موقف الشاعر من الحياة والكون، كما أن الصورة تدفع بالمتلقي إلى

(١) الصـورة الفنيـة فـي شـعر لبيـد رسـالة ماجسـتير صـلاح مصـيلحى علـى عبـد الله إشـراف النعمان عبد المتعال القاضي ١٩٨٠المقدمة ج

معايشة التجربة، وتخلق فيه التجاوب العاطفي بموضوعها أن الصورة بهذا هي الجوهر الثابت والدائم في الشعر مهما تغيرت مفاهيمه ونظرياته سيظل الاهتمام بها على أشده مادام هناك شعراء يبدعون ونقاد يحاولون تحليل هذا الإبداع .

وجبران في تشكيله للصورة الفنية يقع على صورة لها امتدادها البعيد في الفكر :

والحب في الناس أشكال وأكثرها

كالشعب في الحقل لا زهر ولا ثمر

فقد وقع على صورة بمثابة التشكيل الجمالي " الذي هو ثمرة التزاوج بين إحساس الشاعر بعجز اللغة العادية ومحاولة التعبير عن تجربته وموقفه.

" وهذا يحدث فيها تغيرات أو يخلق العلاقات الجديدة التي تكسبها فاعلية خاصة تجعلها قادرة على حمل التجربة والتعبير عنها في تشكيل صوري موجزا١ " والصورة الشعرية في المواكب شديدة الالتحام بالطبيعة وهذا يرجع للمهجريين أنفسهم إذ اتحدوا مع الطبيعة والتصقوا بها إذ إنها تعكس ما يختلج في نفوسهم ويدور بخلدهم " فشخصوا بذلك الطبيعة حتى صارت إلفهم يخاطبونها

وتخاطبهم ويرمزون لصورها بحالات نفوسهم ، فهم والطبيعة مظاهرها شيء واحد وإن اختلفت الأسماء .

وهذا الالتحام مع الطبيعة وشخصنتها ركن ركين في الشعر الرومانتيكى ولعل جبران اقتفي هنا أثر ورد زورث الشاعر الإنجليزي الشهير . وتأسيسًا على ما حاورنا جبران فيه من ملامح التشكيل ، وبراعته الفنية في " مواكبه " يمكن القول بإن جبران أديب قوى الحس واسع الثقافة لم يتأثر بنيتشه فقط بل كان لتأثره بثقافته القديمة أثر في تجربته وصبها في قالب شعري منغم وإذا كانت المقدمة في الشعر القديم " هي القسم الذاتي الذي يعبر فيه عن أحاسيسه ومشاعره وبث شكواه ، وألأمه، وهى انعكاس للأبعاد الاجتماعية ، والنفسية ، للشاعر – على حد قول د حامد محمد مرسي "[1] فإن ذاتية جبران مسيطرة على مواكبة ، إذ صاحبته من مبتدى القصيدة وهو جاعل ألفاظه، عاكسه للمعاني التي تمور بذاته ومرآة لها .

(١) أبعاد ذاتية في الشعر الجاهلي دراسة تطبيقية على المعلقات الشعرية صـ٦ ١٩٩٥ .

ويعد جبران " الأديب المصور البارع من حيث مجيء مواكبه مضمخة بالتعبير عن تجربة شعورية ذاتية ونزعة تأملية كشفت عن دخيلة النفس وفرارها من صخب الحياة حين توجه إلى الطبيعة ، وتأمل في مظاهرها وشخصها ككائن حي[1]

(١) دراسات في الأدب والفن ، حنا نمر ١٠٩- ١١٠ ط١ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان ١٩٨٢

الخاتمة والنتائج

ألقت الرومانسية بظلالها على المنجزات الأدبية في بداية القرن الثامن عشر ، وصار لها تابعون يعبدون طريقها فتسللت إلى عقول المبدعين فتأثروا بها وسيطرت على المنجزات الإبداعية ، والمذهب الرومانسي طبيعي لأن" الروما نطيقية تنبع من التلقائية في التعبير فهي ذاتية تقدس البدائية والسذاجة " (١)

لذا فالشاعر الرومانسي يعلق بالطبيعة ويصوغها أنغاماً مسكوبة في الكلمات بالإضافة إلى تطلعه إلى التجديد على كافة المستويات من الصيغ التعبيرية والمعاني والأفكار والأخيلة التصويرية والأوزان المحددة والصيغ التعبيرية ، وكانت مدرسة المهجر من أبين المدارس التي وضح فيها شيات المدرسة الرومانسية إذ تفاعل جبران مع نهج وأساليب الرومانسيين بناءً وفكراً وشكلاً وتبدى ذلك في تجربته الإبداعية عامة و" المواكب " خاصة.

فجبران من زعماء المدرسة المهجرية.جبران الرسام بالكلمات والألوان تبدت في أشعاره التعلق بالطبيعة، ورهافة الحس ،وفيض المشاعر ، وجيش أنها الفوار وهذا من السمت الرومانسي ، وقد حمَّل

---

(١) ديوان إيليا أبو ماضي – طلاسم صـ ١٧٧ تنقيح جورج شكور ط دار الفكر اللبناني بيروت ط ١ سنه ٢٠٠٤ .

أشعاره أفكاره التي تتشظى فيها ثقافته ، ورؤاه وأمله ، ومزخوره اللغوي ، وإرثه الثقافي، ومكتسبه الفكري ، وتجلى في إبداعه رؤيته الأدبية فهو يرى أن الأدب.

" نشاط يترجم الحياة الاجتماعية " وقد اتسم أدبه بالجدة والطرافة ، في اللغة والأسلوب والإيقاع ، ودعا للتخلص من النهج القديم وحينما استخدم الأساليب القديمة وزن ما يريد ليحدث التوازن الذي يبغيه ؛ فيأخذ من الأساليب القديمة بقدر " لقد تجاوز جبران المألوف من المجاز والجناس وخلافهما ، في محاولة لتحميل الكلمات أكثر مما تعود الأدباء أن يحملوها ، وتجريدها من السطحية والسذاجة . إنه فيض من الصور الرائعة المبتكرة ، في عبارات موسيقية لطيفة الجرس ، شجية الألحان [1]

وتعلق الرومانسي بالطبيعة لافت للأنظار ؛ وإذا كان النقاد والكتاب قد أفاضوا في الحديث عن مبادئها وهيكلها ؛ فقد آثرت الحديث عن ذلك في إطار النموذج التطبيقي الذي اخترته لبعض أبيات قصيدة

" المواكب " إذ إن هذه القصيدة استودعت جل خصال الشعر المهجري حيث حوت الاستكناه النفسي بقسميه المباشر والغير مباشر ،

---

(١) لبنان الشاعر صلاح لبكى صـ١٠٥. –جبران بين الحقيقة ومصالحة النفس ـ٣٤ص .

وأدب المهجر بشكل عام بعيد عن الصخب والتحليل الذاتي : فهو في حوار مستديم مع النفس يتلمس فهمها ووعى ما تبغي والمشاركة الوجدانية إذ أشرك الكون بما حواه فيما يحس ويشعر ، ولم ينحى الفكر جانباً بل بدأ الفكر فيما يصوغه من جمل سارت مسار الحكم ، تجلت فيها ما تأثر به وما أثر فيه ، والتجديد بدى واضحاً في الإيقاع أو الموسيقى ، فلم تعد وحدة البيت تشغل بال شعراء المهجر ، إذ القصيدة لديهم كلُ متكامل تمثل الوحدة. إذ أن كل بيت فيها يقوم بدوره ،وبرز في الشعر المهجري مجاورة سمات الشعر الغربي بما يغلب عليها من مادية ، وما يوجهها من توجه عملي، لسمات الشعر العربي بما امتازت به من روحانية وإشعاع إنساني، فرغم اختلاف الأحوال الاقتصادية، والاجتماعية ، والبيئية في المِهجر عنها في المَهجر كان الإبداع متوافق كل مع بيئته وجنسه، وكان هناك عاطفتان تحكمان الإبداع لدى المهجريين الخوف والقلق ، قد يظهران بوضوح و قد يتواريان، والقصيدة بها تشعبا محمودًا يعكس تدفق الأحاسيس وحدتها وإن كانت الصورة غير متنامية؛ فلا تتولد الفكرة من سالفتها بدليل لو حفنا وحدة من الأبيات ما تأثرت القصيدة [1]والتجديد لديهم في الإيقاع كان بيّنا، وهناك العبارات المعبأة بفيضها الإنساني الذي ينساب هامساً بلا ضجيج ، فحمل بشعور الاغتراب ،

(١) قد غنت فيروز جزءًا مقتطعًا منها فلم تتأثر

الحنين إلى الوطن ، الإحساس بمرارة الجهاد ؛ فهم يجاهدون في أرض الغربة لاكتساب لقمة العيش فلم يهاجروا للعبث أو للهو ، بالإضافة إلى مجاهدتهم للشعور بالغربة والحزن الشديد لما أصابهم وأصاب أوطانهم . فالتحامهم بالطبيعة كمعادل تعويضى أمر لابد منه إذ يفرون إليها عند فجيعتهم في الواقع أو اصطدامهم بالحضارة الصناعية ، فالطبيعة " تجسد له بكارة الأرض العذراء وبراءة الطفولة بما يشتملان عليه من حرية لم يعرفها سوى إنسان الغاب "[1]

ولا شك أن لإتقانه اللغة الإنجليزية جعلته يطلع على المنجزات الثقافية الإنجليزية التليدة والطريفة ، فانعكست في إبداعه فكراً وأداءً وحساً وانفعالاً. مما جعل تجربته تمور بالخصوبة ، والعطاء وتجلى ذلك عند صبها في القوالب اللغوية وهناك توازن بين الخيال والواقع ، فلا طغيان لأحدهما على الأخر ففي " المواكب تتجلى خصوصية رؤيته التي أشرك كونه فيها ، ففي صوت من الاثنين نجده يعانق المطلق وينال السعادة التي تخطت كونها مظاهر مادية تلتف حول الإنسان إلى إحدى خواص تكوينه تلتحم معه فيصير كتلة واحدة ، وإذ كان جبران ثار على التقاليد ورفضها ؛ إذ رأى فيها قيود مكبلة ، ومن ثم نشد الحرية في كهف الغاب إلا أنى أرى أن هذه الأبيات لا تحمل ثورة بقدر ما تحمل رؤية واقعية مجسمة في حياته ، فبلد المهجر " أمريكا " تخلصت من الوصي

(١) في الرومانسية والواقعية صـ ٢٤

"الراع " وتبدد تبييت الناس في قالب معين ، وتصنيفهم أنـواع في قطعان لكل قطيع راع، إذ آنذاك كان المَهجر يتمتع بحرية لحد كبير – يتمتع بها الأفراد والمجتمع – والسمة الذاتية تظهر حنينه وذكرياته وآماله ، وطموحاته وفكره الذي ودَّ لو يسوَّد كل الأعين عن القذى ولا يبصر إلا أكاليل الزهور أما عن الشكل والفن : فقد جاءت " المواكب" متسمة بالوحدة العضوية المتمثلة في وحدة الموضوع ، ووحدة الجو النفسي ، وترتيب الأفكار وما ينتج عنها من صور ، خلاقة بديعة مونقة في بناء متماسك ، اعتمدت على الرمز وماله من دلالات ، وإيحاءات لا ينضب معينها ، والرمز لديه له ذا دلالة معنوية لمعاني خفية ، وكذا تحرر من شعرية الوزن والقافية حين جدد في قالب قصيدته موطن الدراسة ، إضافة للغته السهلة التي عكست فكره المتطلع للحرية المطلقة وتحطيم النظم والقيود .

المصادر والمراجع

١- الأدب العربي في المهجر د حسن جاد القاهرة١٩٩٦

٢- أعلام ورواد في ألأدب العربي د كاظم حطيطة دار الكتب الحديثةجـ٢

٣-بناء القصيدة في دواوين شعر المهجر الجنوبي هيا محمد عبد العزيز الدرهم إشراف د سهير القلماوى د جابر عصفور ١٩٩٥.

٤- تاريخ ألأدب الفرنسي – جوستاف لانسون ت محمود قاسم جـ٢

٥- تطور الشعر العربي الحديث د ماهر حسين فهمي مكتبة النهضة مصر

٥ – التجديد في شعر المهجر د محمد مصطفي هدارة ط١ 1957 دار الفكر العرى

٧-التيارات المعاصرة في النقد الأدبي د بدوى طبانة مطبعة الأنجلو

٨- الاتجاه الوجداني في الشعر المعاصر د عبد القادر القط مكتبة الشباب ٢٠٠٦

٩ – ثورة الأدب محمد حسين هيكل دار المعارف القاهرة طـ ٢ ١٩٨٦

١٠ – جبران وأثاره لجنة من الأدباء – مطبعة المستقبل-ب – ت

١١- جبران بين التمرد ومصالحة النفس د عبد العزيز النعمانى الدار المصرية اللبنانية
١٢- حركة التجديد في الشعر المهجري د عبد الحكيم بليغ الهيئة العامة للكتاب
١٣- الحركة الرومانسية في أوروبا وموقف النقد الحديث النقد الحديث منها د فايز اسكندر المجلة ع ٦٥ يونيو ١٩٦٢
١٤- الرومانطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث عيسى يوسف بلاطة دار الثقافة بيروت ١٩٦٢المواكب جبران خليل جبران ط القاهرة ١٩٢٣
١٥-ديوان إيليا أبو ماضي طلاسم تنقيح جوج شاكور دار الفكر اللبناني بيروت ٢٠٠٤
١٦- ديوان الشاعر القروي رشيد سليم الخورى ط سان باولو١٩٥٢
١٧- ديوان معروف الرصافي مطبعة الاستقامة بيروت
١٨- دراسات في الشعر العربي المعاصر د شوقي ضيف - دار المعارف ط٢
١٩- روائع جبران – ألأعمال الكاملة د ثروت عكاشة الهيئة العامة للكتاب
٢٠ – ألأرواح المتمردة جبران خليل جبران
٢١- سوانح وآراء في الأدب والأدباء د بدوى طبانة لونجمان ١٩٩٧

٢٧-الشعر القصصي حسين محمود دار النهضة العربية ط١ ١٩٨٠
٢٨- الشعر العربي القومي في مصر والشام بين الحربين العالمية الأولى والثانية سميرة محمد زكى أبو غزالة المؤسسة المصرية العالمية للتأليف والترجمة
٢٩- الشعر العربي في المهجر محمد عبد الغنى حسن فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٥٥
٣٠- الصورة الفنية في شعر لبيد رسالة ماجستير صلاح مصيلحى على عبد الله إشراف د. النعمان عبد المتعال القاضي كلية الآداب جامعة القاهرة
٣١-الطبيعة في شعر المهجر د أنس داود الدار القومية للطباعة والنشر
٣٢- فصول في الشعر ونقده طـ٣ د شوقي ضيف -دار المعارف -ط ١٣
٢٣ -في دواوين شعر المهجر الجنوبي رسالة دكتوراه محمد عبد العزيز إشراف د سهير القلماوى د جابر عصفور١٩٩٥
٢٤- في الرومانسية والواقعية د سيد حامد النساج دار غريب للطباعة
٢٥-ما الأدب جان بول سارتر مكتبة الأسرة ٢٠٠٥

٢٥- الفنون والإنسان إرون إدمان ت مصطفي حسين مكتبة مصر ١٩٣٨

٢٦- لغة الشعر العربي الحديث مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية د السعيد الورقي دار النهضة العربية

٣٢- ما الأدب جان بول سارتر مكتبة الأسرة مبادئ الفن جورج لونجوود ت د احمد حمدي محمود الهيئة العامة للكتاب٢٠٠١

٣٣- مجلة الموقف الأدبي الشهرية إتحاد الكتاب العرب ع ٤٢٠ -٢٠٠٦

٣٤- محطات معاصرة في تاريخ الشعر ونقده مطران -جيل العقاد - شعراء مدرسة المهجر محمد إبراهيم الطاووسى دار النهضة العربية

٣٤- المدخل إلى النقد رشاد رشدي مطبعة الأمانة ١٩٨٤مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي د جابر عصفور الهيئة العامة للكتاب

٣٥- مدارس النقد الأدبي الحديث د محمد عبد المنعم خفاجى الدار المصرية اللبنانية.

٣٨- النص الأدبي في العصر الحديث بين الحداثة بين الحداثة والتقليد د عبد الرحمن عبد الحميد دار الكتاب الحديث ٢٠٠٥.

٣٩- هذا الرجل من لبنان د سعيد بابا - طبع دار الأندلس.